إطلالة
على حديث
" يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ..."
رواية و دراية

أحمد مرتضي
قسم الدراسات الإسلامية
جامعة بايرو ــ كنو

١ – المدخل

"الحمد لله الذي نزّل أحسنَ الحديث، و رفع درجة حُماة السنة من رواة الحديث. وجعل اجتماعهم في القديم للذبّ عن حَوزة الدين القويم، و رحمة في الحديث. فلولا ذلك لامّحتْ منه الرسومُ و التحق الموجودُ بالمفقود، والمعلومُ بالمعدوم، و لَما امتاز الطيبُ من الخبيث، ولا العُروةُ الوُثقى من السبب الواهي الرَّثِيث. وعَلا من تحصّل وتأصّل بواسطة التلقي عنه ما أجْملَ من ذلك وفصّل هذا التفصيلَ الأصيلَ الأَثِيث، وتثبيت لأصلها، هذه الرِّفعة الشامخة بما أورثتهم من علومه الحجة الراسخة، وناهيك شرفا بهذه الرفعة ذلك التوريث"[١].

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله و صحبه و سلم تسليما كثرا.

أما بعد،

فهذه دراسة وجيزة لحديث "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"، وشرح أسانيده من حيث الرواية وتوضيح معانيه من حيث الدراية.

ولعل أهمية هذا الجزء تظهر من حيث الرواية؛ في جمع الروايات المختلفة، والطرق المتباينة، والوجوه الواقعة على هذا الشكل في موضع واحد، ليسهل على إخواننا طلاب العلم رؤيتها و دراسة أبعادها من كل الوجوه، ليُتحقق عن مدى ثبوتها في أقصر مدة. وقد حاولت شرح الحديث شرحا يبرز مكنون فوائده، ويربط بين الحقائق التي يدعو إليها الحديث وبين طرق تطبيقها على أرض الواقع.

٢- الأبحاث السابقة حول الحديث:

هذا الحديث جدير بأن يعقد له دراسة مستقلة، لأهميته و ما تضمنه من جوائد الفوائد. وقد حدث ذلك بالفعل. ولعل الإمام ابن القيم الجوزية-رحمه الله تعالى- يكون أكثر بسطا من القدماء في تخريج هذا الحديث، و شرحه في أماكن متعددة في كتبه، وبالأخص في كتابه الرائع "مفتاح دار السعادة"، حيث ساق أسانيده وطرقه المختلفة وشرحها شرحا ممتعا. وواضح أن جُلّ من أتى بعده يستروح بعزو تخريج الحديث إلى ذلك الكتاب. و لا ينقص عمله هذا إلا عدم الغربلة، و تحقيق الطريق الأقرب إلى الثبوت فيما جمع.

و قرأتُ أن الشيخ مرتضى الزبيدي-رحمه الله تعالى- قد ألّف جزءا سماه "الروض المؤتلف في تخريج حديث يحمل هذا العلم من كل خلف"، و لم أحصل عليه. وتعرض الشيخ القرضاوي لشرح الحديث في كتابيه: "كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط"، و"المدخل لمعرفة السنة النبوية"، و لم يزد فيهما على شرحه.

و ذكر الشيخ سليم بن عيد الهلالي أنه خصّ الحديث بدراسة باسم "تحرير النقول في تصحيح حديث العدول: رواية ودراية"[٢]، لكنه لم يتمها، و يرى أن الحديث حسن لغيره. وكذلك الشيخ علي بن الحسن الحلبي ذكر أن له دراسة مستقلة عن الحديث باسم:"إتحاف ذوي الشرف بطرق حديث يحمل هذا العلم من كل خلف"[٣]، و لم أقف عليها. و للشيخ خالد الردادي أيضا دراسة عن الحديث أسماها :"طريق حديث يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله"[٤].

وهذا كل ما رأيته مذكورا مما قد أُلّف حول الحديث. و يجمع بين بحثنا هذا وتلك الدراسات، أنها كلها تنحو نحو إثبات الحديث، ولكن ربما يكون وجه الفراق بين هذه الدراسة وتلك المذكورة،- رغم أني لم أر أكثرها رأي العين-، أن دراستنا هذه تحليل موضوعي وربط بين النص والواقع، بينما يبدو من عنوان كتاب الشيخ مرتضى الزبيدي أنه خاص لجمع طرق الحديث فقط. ولكن يمكن أن نلمح بعض الملامح الكاشفة عن

الكتاب فيما ذكره الشيخ المرتضى نفسه في كتابه "تاج العروس من جواهر القاموس"، حيث قال : "وقد روي هذا الحديث من طريق خمسة من الصحاب–رضي الله عنهم–. وقد خرجتُه في جزء لطيف، وبيّنتُ طرقه ورواياته"[٥].

فمن هنا تختلف هذه الدراسة عن جزء الشيخ الزبيدي، لأن كل ما وجده من الطرق خمسة، والطرق المذكورة في هذه الدراسة قرابة عشرة، كما أنه–فيما يبدو– لم يحلل مضمون الحديث ولم يَعْتَنِ بشرحه، الأمر الذي شغل بالنا كثيرا في هذه الدراسة، ولكنه اكتفي بدراسة الأسانيد وحدها.

و أما الشيوخ: الهلالي والحلبي و الردادي، فهم معاصرون و لم تنشر بحوثهم، أو نُشرت ولم تبلغني، و لا يمكنني أن أقول شيئا رجما بالغيب: عن اتجاههم في شرح النص، فيمكن أن نتفق في بعض الفصائل والشروح، ويمكن أن يبسطوا في موضع، لم يقدر لي الكلام عليه، أو يحدث العكس، فالكتب ليس بين يدي، فيمكن وقوع كل ذلك.

وقد قسمت هذا البحث قسمين: قسم لدراسة أسانيد الحديث، والنظر في طرقه ووجوهه. وقسم آخر لشرحه وتجلية أبعاده، و ذكرت الخاتمة لإجمال أهم النقاط.

وأرجو من الإخوة طلبة العلم، المبادرة إلى الإرشاد إلى الحق، والإشارة إلى خطأ يقع، وما أستنكف عن الرجوع إلى الصواب عن غلط يبدر مني– إن شاء الله–.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

وكتب :

أحمد مرتضى

المبحث الأول
دراسة الرواية و طُرُقها

إن الحديث قيد الدراسة مروي عن كثير من الصحابة –رضوان الله عليهم أجمعين– منهم: معاذ بن جبل، وأبي هريرة، وعلى بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأسامة بن زيد، وأبي أمامة، وجابر بن سمرة، وأنس بن مالك، وعن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلا٠ ولم تسلم طرق هذا الحديث كلها من الضعف والعلل، وإنما يثبت إذا لُوْحِظ بعض أفرادها الخفيفة الضّعف، فإنها عندئذ يثبت الحديث بمجموع طرقه، وهذا ما نحاول إثباته فيما يأتي من دراسة كل إسناد بمفرده٠

١– حديث معاذ بن جبل ﷺ : أخرجه الخطيب البغدادي في "شرف أصحاب الحديث" (ص/١١/١٤) قال:"أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن أحمد الأهوازي قال حدثنا الحسين بن عبد الله بن سعيد العسكري قال حدثنا عبدان –يعني– عبد الله بن أحمد بن موسى– قال حدثنا زيد بن الحريش قالا حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله ﷺ:"يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"٠
قلت: هذا سند موضوع، فيه أربع علل:
الأولي: أبو الحسين محمد بن الحسن بن أحمد الأهوازي يعرف بابن أبي علي، قال أبو نصر أحمد بن علي بن عبدوس الجصاص:"كنا نسمي ابن أبي علي الأصبهاني جراب الكذب"٠ وقال الخطيب فيه:"لم يكن يحسن شيئا من صناعة الحديث"[٦]٠
وعبدان عبد الله بن أحمد بن موسي الذي في السند هو أبو محمد الجواليقي القاضي، قال الخطيب:"كان أحد الحفاظ الأثبات"٠[٧]
والثانية زيد بن الحُريش، فقد قال ابن القطان إنه "مجهول الحال"٠

الثالثة : عبد الله بن خراش قال البخاري" منكر الحديث"٠ وقال أبوحاتم: "منكر الحديث، ذاهب الحديث، ضعيف الحديث"٠ قال الساجي:"ضعيف الحديث جدا، ليس بشئ يكاد يضع الحديث"٠ وقال محمد بن عمار الموصلي:"كذاب"٠

والحافظ ابن حجر اكتفي بأنه "ضعيف"، و أردف قائلا:"أطلق عليه ابن عمار الكذب"٠ بمعنى أنه يستسرف هذا الإطلاق، ومثله اكتفاء الحافظ الذهبي بقوله "ضعفوه"٠ وعلى أي حال فإن الرجل ضعيف جدا، وقال ابن عدي : "عامة ما يرويه غير محفوظ"٠

وأما العوام بن حوشب في السند فإنه ثقة لا غبار عليه٠

وشهر بن حوشب ضعفه بعض الأئمة، و وثقه الآخرون، وكان ممن يضعفه عبد الله بن عون حيث يقول:"إن شهرا نزكوه"– بالنون لا بالتاء– يعني طعنوا في حديثه٠

ويحي القطان و النسائي وابن عدي يقولون: "ليس بالقوي"، وهي عبارة لا تدل علي الضعف الشديد بل علي ضعف خفيف٠ وقال شعبة:" لقد لقيت شهرا فلم أعتد به"– ولا يدل هذا علي ضعف شديد إلي حد ترك حديثه في كل حال٠ وقال ابن سعد:"كان ضعيفا في الحديث"، وقال أبوحاتم "لا يحتج به"٠ وقال الدولابي: "لا يشبه حديثه حديث الناس"٠

كل هذه الأقوال لا تدل على ضعف شديد بحيث يستحق الترك كليا٠ وقد مشّاه البخاري في قوله:"شهر حسن الحديث"، وقوي أمره– كما نقل عنه الترمذي في السنن٠ وقال ابن معين : "ثبت"، وقال أحمد:"ما أحسن حديثه"، وقال مرة: "ليس به بأس"، وقال العجلي: "ثقة"٠ ولخص الحافظ ابن حجر هذه الأقوال بقوله:"صدوق، كثير الإرسال والأوهام"، وعلى ذلك، فإنه في هذا الحديث لم يدرك معاذا، فينشأ ضعف الحديث من هذه الحيثية أيضا، وهي العلة الرابعة٠

٢- وحديث أبي هريرة، له أوجه:

الوجه الأول: أخرجه ابن عدي في الكامل(١٤٦/١) والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٣٤/١٢٨/١) وفي شرف أصحاب الحديث"(ص/٥٢/٢٨) والطبراني في الكبير-كما في المجمع الزوائد (١٤/١)، وفي مسند الشاميين للطبراني أيضا (٢٨٣٨٣/٣١٩/٩) وعزاه ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١٤٦/١) للقاضي إسماعيل كلهم من طريق سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي نا مسلمة قال نا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن علي بن مسلم البكري (البلوي) حدثني أبو صالح الأشعري عن أبي هريرة رسول الله ﷺ ـــ فذكره٠

وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣٦/٤٢) من طريق عبد الرحمن بن يزيد فقال: عن تميم نا علي بن مسلم (الكندي) عن أبي صالح الأشعري عن أبي هريرة ـــ به٠

قلت: هذا سند ضعيف جدا، معلول بعلل:

الأولى: سليمان بن عبد الرحمن ثقة، غير أن "له مناكير عن الضعفاء"-كما يقول الدارقطني٠ وقال ابن معين:" المسكين! ليس به بأس إذا حدث عن المعروفين"٠ وقال أبوحاتم :"صدوق، إلا أنه أروى الحديث عن الضعفاء والمجهولين، وهو عندي في حد لو أن رجلا وضع له حديثا لم يفهم ، وكان لا يميز"٠ ولخص الحافظ ابن حجر هذه الأقوال في "صدوق يخطئ"٠

قلت: وفعلا وقع ما يقول أولئك الحفاظ، فإن شيخ سليمان هنا أعني مسلمة بن عُلي واهٍ جدا٠ فقد قال أبو حاتم:"لا يشتغل به"، وقال البخاري:"منكر الحديث"، وقال النسائي: "متروك"، وقال ابن عدي:"عامة أحاديثه غير محفوظة"، وقال الذهبي في الكاشف: "تركوه"٠

وهناك علة أخري وهي أن سليمان بن عبد الرحمن رواه عن عبد الرحمن بن يزيد بصيغة "نبأ عبد الرحمن" بلا واسطة مسلمة بن علي، كما أخرجه الطبراني في مسند

الشاميين (٦٠٣/٢٣٣/١)٠ وعبد الرحمن بن يزيد هو السلمي، ضعيف كما في التقريب٠

وعلي بن مسلم "البكري" أو "البلوي" أو "النكري" أو "الكندي"–على اختلاف يوجب وجود تصحيف في نسبته–٠ ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق على أنه "البكري"–و لم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا٠

وأبو صالح الأشعري "ثقة" كما حقق الذهبي (في الميزان والكاشف) ، وفي قول الحافظ التقريب "مقبول" نظر٠ لأن الرجل أجل من درجة المقبول، وحتى عند أبي حاتم مع تشدده المعروف يقول "لا بأس به"، فهي منزلة متوسطة عنده أو أعلى من ذلك٠ فالصواب أن الرجل ثقة٠

الوجه الثاني:

أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٥٩/١) والبزار (٨٦/١–الكشف) والعقيلي في الضعفاء (١٠/١) من طريق خالد بن عمرو عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو و أبي هريرة–به٠

قلت: هذا موضوع٠

خالد بن عمرو : قال ابن معين فيه "ليس حديثه بشئ"، وقال أحمد "ليس بثقة"، و قال أيضا "يروي أحاديث بواطيل"، وقال مرة ثالثة "منكر الحديث"، وقال البخاري مثل ذلك، وقال النسائي "ليس بثقة"، وقال صالح جزرة "يضع الحديث"، وضرب أبو زرعة على حديثه"، يعني لم يكترث بمروياته لشدة ضعفه٠

قلت: وخالد يروي هذا الحديث عن الليث، وهو موضع يظهر فيه ضعفه بشدة، وبكلمات ابن عدي "روي عن الليث بن سعد وغيره أحاديث مناكير"٠ وقال بالنسبة للرواية قيد الدراسة:"لا أعلم يرويه عن الليث غير خالد بن عمرو"٠ – ومعلوم أن من هذا حاله لا يحتمل تفرده بهذا الطريق٠

و يزيد بن أبي حبيب ثقة يرسل، و قد عنعن هنا.

و أبو الخير في السند هو مرثد بن عبد الله اليزني "ثقة".

وأبو قبيل هو حي بن هانئ المعافري "ثقة"، كما يقول ابن معين وأبو زرعة وأحمد. وقال أبو حاتم "صالح الحديث".

والحديث معلول بخالد بن عمرو.

ومما يُظهر تَلَفَه أن خالدا-كشأن الكذاب- يضطرب فيه، لأنه تارة أخري يرويه من أحاديث ابن عمر؛ وذلك من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سالم عن ابن عمر-به.

أخرجه ابن عدي في الكامل (١/١٤٥و٢/٣١و٣/) وتمام الرازي في "الفوائد" (١/١٤٢/٨٠- روض البسام) وعزاه الشيخ المتقي الهندي في الكتر (١٠/١٧٦) للديلمي في مسنده والبزار.

وقال الهيثمي و هو بصدد إعلال هذا السند في المجمع (١/١٤):"فيه خالد بن عمرو القرشي، كذبه يحي بن معين و أحمد بن حنبل ونسبه إلي الوضع".

الوجه الثالث:

أخرجه ابن عدي في الكامل (١/١٤٦) من طريق بقية عن مسلمة بن علي عن أبي محمد السلمي عن علي يسار النكري (و وقع في المعرفة لأبي نعيم : عطاء بن يسار بدل علي بن يسار) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ - فذكره.

قال ابن عدي:"هذا الحديث لا يرويه غير مسلمة بن علي".

قلت: و سنده ضعيف جدا محاط بعلل:

بقية بن الوليد ثقة ، وكان يدلس التسوية، و قد عنعن هنا.

ومسلمة بن علي قد مضى أنه منكر الحديث متروك.

وقد تفرد بهذا الطريق حسب إشارة ابن عدي ـــ رحمه الله ـــ، و هو العلة الكبرى للسند.

وأبو محمد السلمي لم أهتد إلي ترجمته.

(وعلي بن يسار النكري ـــ أظنه علي بن مسلم البكري السالف الذكر، فدخل التصحيف في الاسم، فإن كان هو فإن بينه و بين أبي هريرة رجلا، كما مضي في الوجه الأول. و ربما يكون عطاء بن يسار هو المَعْنِي،كما سبق من المعرفة. أو أبو صالح الأشعري كما وقع في الطريق الأولى. فإذا تحقق وجود رجل بينهما، فإن الانقطاع حاصل لا محالة، و هو علة أخرى كبيرة).

الوجه الرابع:

أخرجه ابن عدي في الكامل (١٤٦/١) من طريق محمد بن هشام بن عبد الكريم حدثنا داود بن سليمان الغساني المديني حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة–به.

و قال ابن عدي" لم أر هذا الحديث لمروان الفزاري بهذا الإسناد إلا بهذا الطريق".

قلت: و سنده ضعيف:

محمد بن هشام بن عبد الكريم لم أجده فيما عندي من كتب التراجم .

و كذلك داود بن سليمان الغساني، فلم أجد ترجمته.

ويزيد بن كيسان هو اليشكري قال أبو حاتم " لا يحتج به". ومعلوم أن أبا حاتم يتشدد في العبارة، والرجل قد وثقه النسائي، وقال يحي القطان "هو صالح، وسط، ليس ممن يعتمد عليه". ولخّص الحافظ هذه الأقوال في التقريب بقوله "صدوق يخطئ".

وأبو حازم هو سليمان الأشجعي الكوفي ثقة غير أنه لم يرو عن أحد من الصحابة سوى سهل بن سعد كما في جامع التحصيل.

قلت: وضعف هذا الوجه خفيف بالنسبة لسائر الوجوه المتقدمة، لذلك كان له حساب آخر في الشواهد الآتية غير حسابها.

٣-حديث علي بن أبي طالب:

أخرجه ابن عدي في الكامل (١/١٤٥) من طريق محمد بن محمد بن أشعث عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن محمد حدثنا أبي عن أبيه عن جده جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ﷺ:"ليحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

قلت: هذا سنده ضعيف جدا، فيه أربع علل:

الأولي: محمد بن محمد بن أشعث، والحمل عليه، فقد قال ابن عدي (١/١٥٢):"حمله شدة ميله إلي التشيع إلي أن أخرج لنا نسخة قريبا من ألف حديث عن موسي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، إلي أن ينتهي إلي علي والنبي ﷺ. كتاب يخرجه إلينا بخط طري على كاغد جديد، فيها مقاطيع، وعامتها مسندة، مناكير كلها أو عامتها".

الثانية: موسي بن إسماعيل، فإنه مجهول كما قال الذهبي في الميزان.

الثالثة أبوه إسماعيل بن موسى، ذكره الذهبي في الميزان في جملة أبناء موسى بن جعفر؛ الرواة عنه، ولم يصفهم بجرح ولا تعديل، فيكون بالتالي مجهول الحال.

وأبوه موسى بن جعفر-رحمة الله عليه؛ قال أبوحاتم "ثقة إمام"، وقال الذهبي في الميزان (٤/٢٠٢):"كان موسى من أجود الحكماء، ومن العباد الأتقياء".

ثم عن مفهوم قوله "عن جده" ، يعطي أن محمدا هو الجد لموسى بن جعفر، لكن عطف البيان صرح بأن الجد المعني هنا هو جعفر-رحمة الله عليه-.

ومحمد أبو جعفر لم يدرك علي بن أبي طالب فحصل الانقطاع، و هو العلة الرابعة.

٤-حديث ابن مسعود : أخرجه الخطيب في الشرف (ص/٢٨/٥٤) قال : "أخبرنا عبيد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي قال حدثنا ميمون بن مظفر الحافظ قال حدثنا أحمد بن يحي بن زكير قال حدثنا محمد بن ميمون بن كامل الحمراوي قال حدثنا أبو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحي بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود مرفوعا:"يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

قلت هذا سند ضعيف، عبيد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفي له ترجمة في تاريخ بغداد (١٠/٣٨٥) قال الخطيب:"كان عبيد الله بن أحمد من المكثرين من الحديث كتابة، وسماعا، ومن المقيمين والجامعين، له مع صدق وأمانة وصحة واستقامة، مذهب و حسن معتقد".

وميمون بن المظفر الحافظ هو محمد بن المظفر بن موسي البزاز، له ترجمة في تاريخ بغداد (٣/٢٦٢-٢٦٤)، وقال الخطيب: "كان حافظا فهما صادقا مكثرا".

وأما أحمد بن زكير فقد قال الداراقطني:"ليس بشئ في الحديث".

ومحمد بن ميمون بن كامل الحمراوي صوابه محمد بن كامل بن ميمون الزيات الحمراوي كما في اللسان(٥/٣٩٦) قال الدارقطني:"ليس بالقوي". وقد مضي أن هذه العبارة إنما تدل علي لين، لا على ضعف شديد.

و أبوصالح هو عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/٤٠٥-٤١٦) :"ليّنّاه، و بكل حال، فكان صدوقا في نفسه، من أوعية العلم، أصابه داء شيخه ابن لهيعة، وتهاون بنفسه حتى ضعُف حديثُه، و لم يترك بحمد، و الأحاديث التي نقموها عليه معدودة في سعة ما روي". و ذكر عن علي بن المديني يقول:"ضربت على حديث كاتب الليث، و لا أروي عنه شيئا". و قال ابن عدي:"أبو صالح عندي مستقيم الحديث إلا أنه يقع في حديثه غلط، و لا يتعمد الكذب". و قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب"صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة". والصواب في

حق الرجل أنه ممن يتابع بأحاديثهم ويستشهد به، وليس بعمدة، و لا يُعْتَمد عليه فيما انفرد به.

وابن المسيب لم يكن له سماع عن ابن مسعود.

وبالجملة، فإن هذا الإسناد ليس فيه كبير شئ يمنعه من قبول الانجبار إذا وجد له الشواهد الكثيرة جدا.

وهذا اللفظ "يرث هذا العلم" له شأن في الدلالة علي وراثة العلم وحمله.

٥ــ حديث أبي أمامة : أخرجه العقيلي في الضعفاء (٩/١) و ابن عدي في الكامل (١٤٦/١) و أشار إليه ابن عبد البر في التمهيد (٦٠/١) من طريق محمد بن عبد العزيز الرملي الواسيطي عن زريق بن عبد الله الألهاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ- فذكره بلفظ: يحمل...إلخ.

قلت: هذا سند ضعيف.

قال أبو زرعة حول محمد بن عبد العزيز الرملي"ليس بالقوي"، وقال أبو حاتم:"كان عنده غرائب، ولم يكن عندهم بالمحمود ، وهو إلي الضعف ما هو"- الجرح والتعديل (٨/٨)

و زريق أبو عبد الله الألهاني قد قال ابن حبان في المجروحين (٢٩٩/١):"ينفرد بالأشياء التي لا تشبه حديث الأثبات التي لا يجوز الاحتجاج بها إلا عند الوفاق". قال الذهبي:"صدوق"، وقال الحافظ ابن حجر: "صدوق له أوهام".

و بناء علي هذا، فإن حديثه هذا قد جاء في محله، فيقبل الانسجام في الشواهد، فإنها تتفق معها في إثبات عدالة حملة العلم. بمعنى أن حديثه حيثما يكون حسنا حتى يخالف زريق غيره من الحفاظ.

وأما القاسم بن عبد الرحمن فهو الشامي مولي بني أمية قال الترمذي:"ثقة" وقال الذهبي:"صدوق"، وقال الحافظ: "صدوق يغرب كثيرا".

قلت: لا تضر غرابته هنا، لأنه لم ينفرد بما لا شاهد له عليه، مع أن أحاديثه عن أبي أمامة في درجة الحسن عند أهل العلم بالحديث.

٧- وحديث جابر بن سمرة: أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/١٠-١١) من طريق عبد الملك بن عبد ربه الطائي قال حدثنا سعيد بن سماك بن حرب عن أبيه عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ- به.

قلت: هذا سند واه جدا، فيه عبد الملك بن عبد ربه الطائي قال الذهبي في الميزان (٦٥٨/٢):"منكر الحديث، وله عن الوليد بن مسلم خبر موضوع. وله عن شعيب بن صفوان".

وفيه أيضا سعيد بن سماك، قال أبو حاتم :"متروك الحديث".

٨- وحديث أنس: أخرجه ابن عساكر (٢٢٥/٥٤) قال: حدثنا ابن نباتة الفقيه أبوالحسن عن وجوده في كتابه أخبرنا أبو الحسن السلمي قال رأيت في كتاب لجدي أبي بكر محمد بن عقيل بن زيد الشهرزوري –رحمه الله- نا القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سلمة بن عبد الله المالكي بميافارقين قراءة عليه و أنا أسمع فأقر أحمد بن منصور بن محمد بن أحمد الشيرازي الحافظ حدثني أبو الحسين محمد بن أحمد بن محمد البغدادي بالأبلة نا محمد بن مهدي الواسطي نا أحمد بن عبد الله بن يونس نا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن أنس-به باللفظ المعروف.

قلت: و هذا سند ضعيف جدا لعدة علل:

منها أن السند محفوف بالمجاهيل.

وفيه انقطاع أيضا، لأن أبا الحسن السلمي لم يسمعه من جده، و إنما وجد كتابه، والوِجادة في حكم الانقطاع عند علماء الحديث.

٩- ومرسل إبراهيم العذري-رواه عنه جماعة:

١- وليد بن مسلم عنه: أخرجه ابن عدي في الكامل (١٤٧/١) والبيهقي في السنن (٢٠٩/١٠) وابن عساكر في التاريخ (٣٨/٧) من طريق الحسن بن سفيان حدثنا إبراهيم- يعني ابن أيوب الحوراني الدمشقي حدثنا الوليد حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن قال حدثنا الثقة من أشياخنا قال قال رسول الله ﷺ-فذكره.

قلت: هذا سند لين، قابل للتحسين.

وإبراهيم بن أيوب لم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرحا ولا تعديلا (٨٨/٢) غير أنه قال:"من العباد"، وهي عبارة لا تجدي فتيلا في هذا المجال.

له متابعان عن وليد:

الأول: أخرجه ابن وضاح في البدع و النهي عنها (ص/٢/١٧) من طريق أسد بن موسى حدثنا الوليد بن مسلم-به.

وأسد بن موسى ثقة من الأئمة.

الوليد بن مسلم ثقة، يدلس التسوية، قال الذهبي:"كان يدلس، فيتقي من حديثه ما قال فيه:"عن"، والمنظور فيه هنا أن روايته سليمة لتصريحه بالسماع.

والثاني: أخرجه ابن عدي في الكامل ومن طريقه ابن عساكر في التاريخ (٣٨/٧-٣٩) من طريق محمد بن عبد العزيز حدثنا أبو عمير حدثنا الوليد بن مسلم عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري حدثني الثقة أن رسول الله ﷺ قال-فذكره بلفظ "يحمل هذا العلم...".

هذا سند ضعيف، محمد بن عمر بن عبد العزيز له ترجمة في تاريخ بغداد (٢٣/٣) و لم يذكر فيها جرحا ولا تعديلا.

و أبو عمير هو عيسى بن محمد النحاس الرملي، له ترجمة في سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢/١٢-٥٤)، وتهذيب التهذيب لابن حجر(٢٠٨/٨ــ٢٠٥)، وهو ثقة، و وصفه الذهبي بـــ"الإمام الحافظ العابد القدوة".

والجدير بالملاحظة أن زيادة كلمة "الثقة من الأشياخ"– رواها الوليد بن مسلم وحده عن إبراهيم، ولم يروها معان، والوليد أوثق بكثير من معان، فتكون زيادته مقبولة.

وإبراهيم بن عبد الرحمن العذري، قال ابن حبان:"يروي المراسيل كثيرة، و يحدث عن أقوامٍ مجاهيل، لا يشبه حديثه حديث الأثبات"، وقال الذهبي: "تابعي مقل ما علمته واهيا، أرسل حديث يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله. رواه غير واحد عن معان بن رفاعة، ومعان ليس بعمدة، ولا سيما أتي بواحد لا يدري من هو". فهذا يعني أن إبراهيم مجهول العين عند الذهبي. غير أن ابن عرفة جعله خطأ من الصحابة، الأمر الذي يؤشر إلى أنه من كبار التابعين.

وقول الشيخ أبي الحسن ابن القطان:"لا نعرفه ألبتة في شئ من العلم غير هذا"[٨]، فمثل هذا الحكم لا يوهنه بمرة، لأنه قد روي عنه الوليد بن مسلم ومعان بن رفاعة فخرج عن حيز الجهالة العينية التي يظنها هو و الحافظ الذهبي.

وبالإضافة إلى هذا فهو تابعي كبير، وأهل العلم بالحديث ينظرون إلي من اجتمعت فيه كثرة الرواة عنه ومرتبة التابعية الكبرى، بالإضافة إلى احتمال الرواية عن الصحابة، ينظرون إليه بقيمة كبيرة.

ثم إنه لا ينبغي أن يُغْفل عن منهج الحافظ ابن القطان، فإنه حسب ما يقول الذهبي في الميزان: "يتكلم في كل من لم يقل فيه إمام عاصر ذلك الرجل، أو أخذ عمّن عاصره ما يدل على عدالته".

وأشياخ إبراهيم لا يبعد أن يكونوا صحابة، لأنه تابعي كبير. هذا على افتراض. وعلى افتراض آخر، فإنهم لو كانوا صحابة، لما كان لإبهام مرتبة الصحبة فائدة، لأنها أكبر درجة ـــ بدون مقابل ـــ من لفظة "الثقة".

على كل حال، فإن كانوا صحابة، فهذا ما كنا نبغي، و إن لم يكونوا فالإبهام هنا غير مضر، حتى وإن كان له تأثير، فهو غير شديد، لأنه معضود بالشواهد.

و إن لم يكونوا صحابة، فالشقة غير بعيدة جدا، يمكن أن تُلافى، فيكون الحديث من رواية التابعي عن تابعي آخر، و رواية التابعي مرسلة، كما هو واضح، و مرسل ضعيف. و لكن له شواهد.

ب ــ معان بن رفاعة عنه :

و رواه عن معان هذا جماعة:

١ــ بقية بن الوليد عنه: أخرجه ابن عدي في الكامل (١١٨/١و١٤٧و٧٩/٢) وابن حبان في الثقات (١٠/٤) وابن عساكر في التاريخ (٣٧/٧) والبيهقي في السنن (٢٠٩/١٠) وفي دلائل النبوة له (٥٤/١) والخطيب في الشرف (ص/٢٩/٥٥) وأبو نعيم في المعرفة (٧٣٠/٢١٣/٢) وابن عبد البر في التمهيد (٥٩/١) من طريق أبي الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد عن بقية بن الوليد عن معان بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله ﷺ: "يرث هذا العلم ...الحديث.

قلت: هذا مرسل حسن لغيره إلي إبراهيم، ولا ينبغي إعلاله بعنعنة بقية بن الوليد لكونه مدلسا، فقد توبع علي روايته عن معان.

٢ــ مبشر عن معان: أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٧/٢) وابن عدي في الكامل (١١٨/١و١٤٦) عن مبشر عن معان عن إبراهيم بن عبد الرحمن قال قال رسول الله ﷺ:" يرث هذا العلم" ــ الحديث.

٣ــ و لمبشر متابع أيضا، وهو المثني، أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٣٨/٧) وعزاه ابن القيم في المفتاح (١٦٣/١) للدارقطني من طريق هاشم بن القاسم حدثني مثني ومبشر وغيرهما من أهل العلم كلهم يقول ثنا معان بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن ــ به نحوه.

قلت: هاشم بن القاسم له ترجمة في تاريخ بغداد (٦٨/١٤) ، قال الخطيب : "كان ثقة".

والحديث رواه عن مبشر:"هاشم بن القاسم و زياد بن أيوب، ومحمد بن عبيد المديني".

و مبشر هو ابن إسماعيل الحلبي، تكلم فيه ابن قانع بلا حجة، وقد فصل القول في شأنه الذهبي في الميزان (٤٣٢/٣) والحافظ في الهدي (ص/٤٤٣) وأثبتا أنه ثقة.

ومثني هو ابن بكر و هو ثقة أيضا.

٤ــ إسماعيل بن عياش عن معان ــ به.

أخرجه ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح و التعديل (١٧/٢) و ابن عدي في الكامل (١٤٦/١) والعقيلي في الضعفاء (٢٥٦/٤) وابن عساكر في التاريخ (١٣٨/٧) وابن عبد البر في التمهيد (٥٩/١) وابن بطة في الإبانة (ص/٣٣) وابن قتيبة في عيون الأخبار (١١٩/٢) والقاضي وكيع في "غرر الأخبار"، وابن منده في معرفة الصحابة ــ كما في الإصابة (١١٧/١) ــ و أشار إليه أبو نعيم في المعرفة (١٥٧/٢) من طريق الحسن بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عياش عن معان بن رفاعة السلامي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله -ﷺ فذكره مرسلا.

قال العقيلي:" لا يعرف إلا به" ــ يعني انفرد به معان.

قلت : ليس في هذا السند علة تمنعه من قبول الجبر، و رواية إسماعيل بن عياش عن غير أهل بلدته الشام ضعيفة، و هذا قاعدة معروفة في رواياته، غير أنها لا تنطبق هنا، لأن ابن عياش بلدي معان، وكلاهما شامي.

ومعان بن رفاعة السلامي اختلف الناس فيه:

قال ابن معين:"ضعيف"، وقال البخاري: "منكر الحديث"، وقال الجوزجاني: "ليس بحجة"، وقال الأزدي: "لا يحتج به"، وقال ابن عدي: "عامة ما يرويه لا يتابع عليه"، وقال الذهبي: "ليس بمتقن"، وقال أبو حاتم: "لا يكتب حديثه، ولا يحتج به".

هذا، وقد وثقه ابن المديني، وقال أحمد بن حنبل: "لا بأس به"، وقال دحيم: "ثقة"، ولخص الحافظ ابن حجر هذه الأقوال فقال : "لين الحديث، كثير الإرسال"٠

قلت: أما لينه فمنجبر هنا٠

وقد دافع عنه ابن الوزير اليمني حيث قال في العواصم (٣١١/١):"ومعان وثّقه ابن المديني، وليَّنه يحي بن معين، ولم يتكلم فيه إلا بمقتضى أن في حفظه بعض الضعف٠ وقد عضده الحديث المسند رواه العقيلي، مع أن بعض الضعف في الحفظ لا يرد به حديث الثقة، و لكن يرجح حديث من هو أوثق منه عند التعارض"٠

و معان قد مضى تلخيص الحافظ ابن حجر لأقوال العلماء فيه، أنه :"لين الحديث، كثير الإرسال"٠ ولا ينبغي تضعيفه بمرة بقول الذهبي في الميزان (٤٥٠/١):"معان ليس بعمدة"، لأن هذا الكلام لا يدل علي وهنه كليا، فإن من ليس بعمدة يمكن أن يعتبر به في المتابعات والشواهد، كما هو الشأن هنا٠

وقد خالف أصحابَ معان: سليمانُ بن أبي كريمة، فجعله من حديث أسامة بن زيد، وذلك فيما أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص/٥٣/٢٨) والعلائي في بغية الملتمس (ص/٣٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/٧) وأشار إليه أبو نعيم في المعرفة (١٥٤/١٥٧/١)، وعزاه ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١٦٣/١) لمحمد بن جرير الطبري: من طريق سليمان بن أبي كريمة السلمي عن معان بن رفاعة عن أبي عثمان النهدي عن أسامة ـــ به بلفظ: "يحمل هذا العلم٠٠"٠

قلت: سليمان بن أبي كريمة ضعفه العقيلي في الضعفاء(١٣٨/٢) قال:"سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن حسان يحدث بمناكير، و لا يتابع علي كثير من حديثه"٠ وقال أبوحاتم: "ضعيف الحديث"٠

وذكره أبو نعيم بـــ محمد بن سليمان بن أبي كريمة، و هو ابن لسليمان المذكور في السند، وكذلك ذكره العلائي في البغية (ص/٣٥) وأضاف قائلا:"يعرف ببومة، وثقه سليمان بن سيف وطائفة"٠

والوالد: سليمان بن أبي كريمة، هو راوي هذا الحديث ،فهو ضعيف.

وأما الولد رغم أنه لم يرو هذا الحديث، فإن ابن عدي بعد أن ذكر له بعض الروايات المنكرة، قال:"لسليمان بن أبي كريمة ما ذكرت، وليس بالكثير. وعامة أحاديثه مناكير، ويرويه عنه عمرو بن هاشم البيروتي. وعمرو ليس به بأس، ولم أر للمتقدمين فيه كلاما. وقد تكلموا فيمن هو أمثل منه بكثير، ولم يتكلموا في سليمان هذا، لأنهم لم يخبروا حديثه".

قال العقيلي:"سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن عروة ببواطل لا أصل لها".

و قد وهم الشيخ العلائي حيث ظن أنه المعروف بالبومة ، فإن بومة هذا: هو محمد بن سليمان بن عطاء بن أبي داود الحراني، قال ابن حبان في الثقات:"روى عن أبيه ومالك وسعيد بن بشير. روى عنه سليمان بن شعيب وأهل الجزيرة. مات سنة ثلاث عشرة ومائتين ولقبه بومة، يعتبر حديثه من غير روايته عن أبيه"[٩].

ويضعف الحافظ ابن حجر هذا الطريق عن أسامة في الإصابة (١١٧/١) بقوله:"لا يثبت".

ومن قبله حكم عليه الحافظ أبو نعيم بمثل هذا كما في فتح المغيث (١٧/٢) بأنه:"لا يثبت".

وخالفهم الشيخ الحافظ العلائي حيث أثبت في بغية الملتمس(ص/٣٤) أنه: "حسن غريب صحيح".

ولعله نظر إليه بمفرده، و لم يقارن بينه و بين سائر الطرق المروية عن معان، لو فعل ذلك لتبين له وجه الضعف في الرواية.

٣- نتيجة البحث:

وبالجملة، فإن الحديث لا شك أن فيه ضعفا، و لكن بحكم ما احتف به من الطرق تجعله لا يبلغ حد الضعف الأخير، أو ما يسمى: ضعيف جدا. فاللين الذي فيه بسيط، بحيث

يقترب إلى حد "الحسن لغيره"، وخاصة إذا لوحظ خفة ضعف أكثر طرقه، باستثناء الروايات عن معاذ و علي بن أبي طالب، و أنس، والوجه الأول والثاني والثالث من رواية أبي هريرة، فإن هذه واهية جدا لا تساوي فلسا.

وهناك رواية أخرى ضعيفة عن ابن عباس لم أعثر عليها، وإنما رأيت الحافظ السخاوي ذكرها في فتح المغيث (١/٢٩٤)

ومجموع هذه الطرق المشروحة تؤيد أصالة الحديث، وأنه أقرب إلى الثبوت منه إلى الضعف، وعلى حد تعبير الشيخ ابن القيم:"يشد بعضها بعضا"[١٠]. وقال ابن الوزير اليمني: "إن هذه الشواهد تقويه". وقال القسطلاني:"يمكن أن يتقوى بتعدد طرقه، ويكون حسنا، كما جزم ابن الكيكلدي العلائي".

وقد ترجح عندي عن طريق هذه الدراسة المتواضعة، أن حكم لفيف من العلماء بضعفه– قطعا– غير سديد، فيه تجوّز و تساهل–بعض الشئ–رغم أن من بين هؤلاء العلماء الشيخ ابن كثير–رحمه الله تعالى– حيث قال :"في صحته نظر، والأغلب عدم صحته"، وقال أيضا حول مرسل إبراهيم العذري:" هذا الحديث مرسل، وإسناده ضعيف، والعجب أن ابن عبد البر صححه، واحتج به علي عدالة كل من حمل العلم"[١١]. ويقول الحافظ العراقي–رحمه الله تعالى– مؤيدا نظرة التضعيف، بعد سرد أسماء رواته وطرقه: "كلها ضعيفة لا يثبت منها شئ، وليس يقوي المرسل المذكور". وردد نفس هذا الكلام الشيخُ السيوطي–رحمه الله تعالى–. والحافظ السخاوي–رحمه الله تعالى– في فتح المغيث ذهب مذهب التضعيف، ولفظه :"الحديث مع كثرة طرقه ضعيف".

وتابع الشيخ أحمد شاكر–رحمه الله– هؤلاء العلماء، فهو لم يُضِف جديدا، فكل ما قاله تكرار لما قاله الحافظ العراقي بالأخص.

ولقد سبق عرض طرق الحديث علي مائدة البحث، وتم تقليبها يمنة ويسرة تحث ضوء قواعد المصطلح، حتى أثبت لنا التحليل التفصيلي الحديثي عكس ما يقول أولئك العلماء– رحمة الله عليهم. فالحق الذي لا يسع الباحث اتباع غيره هو العدل والإنصاف.

فالإنصاف العلمي أن ينظر إلي الحديث كَكُل في مجموعه، الأمر الذي لم يُعِره بعضُ العلماء الاهتمام بشأن هذا الحديث، وأدّى الأمرُ ببعضهم إلي الاختلاف في الحكم عليه، كما يقول ابن الوزير اليمني حاكيا أقوالهم:"هل الصحيح وقفه أو وصله علي ثلاثة أقوال: فقال العقيلي: الإسناد أي الوصل أولي من الإرسال. ونازعه ابن القطان قائلا: إن الإرسال أولي من الوصل ، وهو ثاني الأقوال. و ثالثها توقف في ذلك ابن النحوي المعروف بابن الملّقن".

هذا ما حكاه، و الحق أنه ليس هناك داع إلي التوقف أو ترجيح بعض الروايات المرسلة علي الموصولة، لإمكانية اعتبارها بمجموعها. لأن الإرسال لا يؤثر في التضعيف ما دام أنه معضود بالروايات الموصولة. وهناك روايات موصولة كثيرة في هذا الباب تستحق الاعتبار في الشواهد والمتابعات، و بها يقفز هذا الحديث إلي حظيرة الحسن لغيره–إن شاء الله–.

وقد ذهب مذهب ثبوته طائفة من العلماء بالتصريح أو ضمن الكلام بالإشارة القوية المُفهِمة.

ذكر ابن منظور اللغوي عن القعنبي يقول:"سمعت رجلا يحدث مالك بن أنس بهذا الحديث، فأعجبه"[١٢]. يعنى استحسن الإمام مالك الحديث و استملحه.

ومن قبيل المصححين له، ما أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٣/١٢٩/١) من طريق محمد بن عمر الضمري قال سمعت عمي يقول سمعت عيسى بن صبيح أبا موسى يقول : قد صح أن النبي ﷺ قال: قال فسبيل العلم أن يحمل عمن هذه سبيله ووصفه".

و أبو موسى هذا كان يغمز بالاعتزال، و لا يمنع أن يقبل منه الحق متى استبان على لسانه.

و أعرب الإمام أحمد بن حنبل عن رأيه الإيجابي تجاه هذا الحديث، فيما أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص/٢٩/٥٦) وابن عساكر في التاريخ (٧/٣٩) من طريق

الخلال في كتاب العلل: قال قرأت علي زهير بن صالح بن أحمد حدثنا مهنا قال سألت أحمد بن حنبل عن حديث معان بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله ﷺ:" يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. فقلت لأحمد كأنه موضوع !؟ قال : لا هو صحيح. قلت: ممن سمعته؟ قال من غير واحد. قلت: مَنْ هُم ؟ قال حدثني مسكين ، إلا أنه يقول عن معان عن القاسم بن عبد الرحمن (يعني أنه أخطأ في تسمية إبراهيم بن عبد الرحمن فسماه القاسم). قال أحمد معان بن رفاعة لا بأس به".

ثم إن الشيخ ابن الوزير اليمني الصنعاني يرى في الروض الباسم (ص/٢٠) أن الاتجاه "القوي صحة الحديث، كما ذهب إلي ذلك إمام أهل الحديث أحمد بن حنبل، و العلامة الحافظ أبو عمرو بن البر".

و قال السخاوي:"و هو من جميع طرقه ضعيف، كما صرح به الدارقطني و أبو نعيم وابن عبد البر، لكن يمكن أن يتقوى بتعددها و يكون حسنا كما جزم به العلائي، لاسيما و يستشهد له كتاب عمر إلى أبي موسى –رضي الله عنهما–:"المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد، أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو نسب".

و قال الشيخ أحمد بن الصديق الغماري:"إن الحديث كثير الطرق، ثابت صحيح مشهور بين الحفاظ"[١٣]

وبالجملة، فإن تصرفات و تصريحات عدد غير قليل من العلماء تعطي أنهم مقتنعون ــ صراحة ــ بثبوت الحديث. و قد كان منهم:

١ــ ابن أبي حاتم في الجرح و التعديل (١٧/٢)

٢ــ الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص/١١و٢٨)،
والجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع (١٣٩/١)

٣ــ ابن عبد البر في التمهيد (٥٨/١ــ٦٠)

٤ــ ابن المواق المالكي حكاه عنه العراقي و غيره.

٥ــ ابن الجوزي في زاد المسير (

٦ــ القرطبي في تفسيره (١/٣٦و٧/٣١١)

٧ــ أبو شامة في الباعث علي إنكار البدع والحوادث (ص/٤٢ــ٤٣)

٨ــ النووي في تهذيب الأسماء و اللغات (١/١٧)

٩ــ ابن العربي المالكي في عارضة الأحوذي (١/٢)

١٠ــ ابن تيمية في الفتاوي (١/٣و٥١٥/٢٩٨)

والرد علي البكري (ص/١٧٢)

١١ــ ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/١٦٣ــ١٦٤)

ومدارج السالكين (٢/٤٧٠)

وإغاثة اللهفان (١/٢٥١ــ٢٥٢)

والصواعق المرسلة (٤/١٣٤٣و١٣٩٥)

وطريق الهجرتين (١/٥٦٦)

١٢ــ ابن الوزير اليمني في الروض الباسم (١/٢١ــ٢٢٩

وتنقيح الأنظار (٢/١٢٧)

والعواصم من القواصم (١/٣١٠ــ٣١١و٢/٢٣٧ــ٢٣٨)

١٣ــ ابن كيكلدي العلائي في بغية الملتمس في سباعيات حديث الإمام مالك بن أنـــس (ص/٣٤)

١٤ــ ابن ناصر الدمشقي في الرد الوافر (ص/٦٧)

١٥ــ ابن الجزري في قصيدته النهاية التي شرحها الحافظ السخاوي.

١٦ــ السخاوي في الغاية شرح منظومة الهداية في علم الرواية (ص/٢٠). و لعله رجع إلى تحسينه في هذا الكتاب، لأن تأليفه كان بعد فراغه من فتح المغيث بسنوات غير قليلة.

١٧ــ القسطلاني في إرشاد الساري شرح صحيح البخاري (١/٤)

١٨ــ السمهودي حكاه عنه الشيخ عثمان فودي

١٩ــ القنوجي في الدين الخالص (٣/٣٦١و٣/٥٤٦)

٢٠- الغماري أبو الفيض أحمد بن الصديق في الأجوبة الصارفة لإشكال حديث الطائفــة (ص/٧٧-٨٠)

المبحث الثاني

دراسة متن الحديث ومحتواه

تحمل الأحاديثُ النبويةُ ألفاظا رنّانة عند السماع، عذبة سهلة في النطق مع ما تنطوي عليه من المعاني الفيّاحة والمقاصد النبيلة..

إنها كلمات هادئة خرجت من قلب سليم لهدف إصلاح الفرد والمجتمع والإنسانية جمعاء..

إن للأسلوب النبوي مميزات عالية: من أبرزها الدقة في اختيار الألفاظ، والشمولية في المضمون ثم نقاوة الأغراض و وضاحة الأهداف، لأن صاحبه رباني مؤيّد، وقد "بُعث بجوامع الكلم"[١٤].

إنه أسلوب ممتاز –أيضا– يخالف في سهولته و رصافة كلماتِه تعابيرَ عباقرة اللغة وأرباب صناعة الكلام، فتعبيراتهم –كما هو بيّن بنفسه– تقوم على رصد الألفاظ واصطياد المعاني، بجانب ما يكتنف كثيرا منها من التكلف والتصنع والغموض. و لكن الأسلوب النبوي تتبدى فيه أنوار النبوة وهدوؤها، و يتجلى فيه منهجها القويم، وذلك لأنه تنزيل من التنزيل..

لقد تحدث النبي ﷺ بالألوف الألوف من الأحاديث ، أسكب فيها رسالته و ضمّنها شرائع إسلامية عدة، و توجيهات تربوية ليرفع بها الإنسانية من الحضيض الذي ترسف فيه إلى قِمّة لا مثيل لها..

إن قِوام رسالة محمد ﷺ واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، هي "العقيدة الصحيحة"، و"العلم النافع"، و"العمل الصالح". قد نادى إليها كلها الرسول ﷺ و جاهد دونها، و ألزم على الدعاة إلى دينه أن يكثّفوا الهمة في توضيح ذلك الدين القويم و تجلية أبعاده للمدعوين–على اختلاف مستوياتهم، وحسب الظروف و مقتضيات الأزمنة والأمكنة.

يقول ﷺ :" يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدولُه ، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين"– يقول هذا ليشدّ العقول الراشدة إلى عملية التغيير البنّاء في الأفكار والأوضاع، وتصحيح الأفهام الخاطئة.

وهذا الحديث على وِجازته فسيح المضمون، و واسع الأرجاء، يحتمل تحليلا مبسطا، ونحن في هذا الجزء نحاول قدر الإمكان أن نشرحه شرحا مقتصدا بقدر ما يتبن معناه، وخاصة في العصر الراهن.

٢–٢ مفهوم العلم الإسلامي:

إن "العلم" كلمة واسعة المضمون، رسخ الإسلام أصالتها وأناط بها تعاليمه، وجعلها قوام عقائده، والدستور الحاكم لتصرفات المسلمين منذ فجر الدعوة إلي اليوم. و على قدر الاعتماد على العلم وربط الغايات به، وتحليل الأهداف تحت ضوئه تتكوّن الشخصية الإسلامية.

لقد قرن الله تعالى بين "الإسلام" و"العلم" في مستهل الدعوة، من أول يوم بدأ فيه الوحي بالنزول، لإشباع الغريزة العلمية البارزة في تصرفات الإنسان، بدافع حب التطلع و الانشداد نحو المعرفة من جهة. ومن جهة أخرى لِمَا للعلم من الفوائد والمنافع الكامنة فيه و الظاهرة؛ التي لم تزل تظهر على تعاقب الأجيال. و هذا الاقتران والتزاوج واضح ملموس في قوله تعالى:"اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم"[١٥].

الجدير بالإشارة إليه في الآيات المسوقة هو ما تضمنتْه من الجدية البالغة في إشادة القرآن بـ "القراءة" و"الكتابة" اللذين هما عنصران متشابكان للعلم، ومفتاحان لباب المعرفة–على أوسع مداها–، و مشرَع لفهم الدين على وجهه الصحيح، وتفتيح طرق فهمه للآخرين.

الآيات المذكورة ومثيلاتها الكثيرة مثل قوله تعالى:"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"[١٦]، كلها تدعو إلى إعمال الفكر والتأمل الدقيق في الأنفس والآفاق، لا ريب أنها تشدو الانتباه إلى أهمية العلوم الشرعية (أمثال علوم القرآن والحديث والفقه واللغة)، والعلوم الحديثة (الإنسانية والاجتماعية والطبيعية) جنبا لجنب، ما دام أن هذه العلوم، خاصة وبالتأكيد الأخيرة الذكر، مدروسة بهدف إثبات اسم الرب الذي خلق الإنسان من علق، على كل مظهر من مظاهر الحياة. وما دام-كذلك-أنها مستخدمة في سبيل التوجه الحثيث الصحيح إلى دين الله الحنيف، وتطبيق شريعته الغراء على كل مرفق من مرافق الحياة، وخدمة الأمة المسلمة، والإنسانية جمعاء.

لقد قضى الرسول ﷺ ما يقرب ربع قرن يشرح الحقائق الإيمانية، بل إن مدة حياته كلها خطوة خطوة حياة علمية، يجلو في مراحلها و أدوارها المختلفة في منشط ومكره، رسالتَه الإسلاميةَ نقطةً نقطةً، شرحا يتناسب مع الظروف والأحوال، فيجئ تارة مبسطا، وتارة أخرى موجزا، على قدر ما يظهر المقصود و يستوعبه الحضور. قال الله تعالى:"يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته"[١٧]. وقال:"وما على الرسول إلا البلاغ"[١٨]. وقال:"وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم"[١٩].

ولقد مارس ﷺ بالفعل الجاد هذا التكليف وقام بتوضيح مبين، وتفصيل بلاغي رصين، حتى كاد تكون كلمته الختامية في أواخر جُلّ مجالسه وخُطبه:"ألا هل بلغتُ ؟! بل يكثر يقول:"إنكم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون ؟"، يكثر قولها في المحافل على رؤوس الملأ الأشهاد بعد توضيح جزئية أو جملة جزئيات رسالية. فيجيب الحضور فور ذلك باطمئنان بالغ: "نعم، نشهد أنك بلغتَ وأديتَ ونصحتَ"، فيردف بالقول في سُكون:"اللهم اشهد!"[٢٠]. ويقول في حديثه:" تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك"[٢١].

إنه ﷺ شخَّص بكل وضوح، وبكل تفصيل لم يدع مجالا للشك والمراوغة: أن هذه المحجة البيضاء، هي الكتاب والسنة، فهما العروة الوثقى التي لا انفصام لها أبدا، والمنظومة

الواجبة السلوك للوصول إلى الخير والصلاح كما قال تعالى:"إنا أنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شئ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"[٢٢].

وإلى هنا، فإن المقصود بقوله "يحمل هذا العلم"، هو المعرفة المتمكنة الأصيلة بالكتاب والسنة، بحيث يفزع إليهما المسلم، ويحتمي بهما، ويحلل نشاطاته على ضوئهما، ويجري حياته كلها وِفق مبادئهما وتحديداتهما، إذ هما مصدر المعرفة والثقافة والفكر والحضارة. وبمفعول هذا العلم المحمول يتبين الحق من الباطل في الاعتقادات، والصواب من الخطأ في المقولات، والمسنون من المبتدع في العبادات، والحلال من الحرام في التصرفات، والصحيح من الفاسد في المعاملات، والفضيلة من الرذيلة في السلوكيات، والمقبول من المردود في المعايير، والراجح من المرجوح في الأقوال والأعمال. وفي ذلك يقول الله تعالى:"وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا"[٢٣]. وقال:"ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون"[٢٤]. وقال الرسول ﷺ في الحديث:"تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما:كتاب الله و سنتي، و لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض"[٢٥].

فمفهوم "العلم" في الحديث قيد الدراسة، هو فهم الدين فهما حقيقيا، نابع من أصوله، ومتفاعل مع "العقل" الذي يربطه بالواقع، حسب قول الإمام الجليل محمد بن سيرين–رحمه الله–:"إن هذا العلم دين، فانظروا عمّنْ تأخذون دينكم"[٢٦].

٣ــ٢ التخصص في العلم النبوي:

الجملة الأخيرة من كلام ابن سيرين:"فانظروا عمن تأخذون دينكم"، مؤشر كبير إلى إيجاد المتخصصين الذين يصلح الأخذ منهم. و كان القرآن يقول:"وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة طائفة منهم ليتفقهوا في الدين، و لينذروا قومهم إذا

رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون"[٢٧]. وقال: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون"[٢٨].

وأعْرب الرسولُ ﷺ عن إيجابية التخصص في فرعية علمية أو في فن من فنون المعرفة، وأهمية ذلك، إذ يقول:"أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأقضاهم علي، وأفرضهم زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ"[٢٩]. وقد كان النبي ﷺ يمتدح أبا هريرة وينوّه بتخصصه وتوجهه إلى حفظ الحديث، حينما سأله أبو هريرةﷺ:"عن أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة ؟ فأجاب بقوله:"لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا أحدٌ أولَ منك. *لما رأيتُ من حرصك على الحديث*. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة : من قال لا إله إلا الله خالصا من قِبَل نفسه"[٣٠].

لقد حافظ سلف الأمة ــ بكل جدية ــ على هذه التربية النبوية العديمة المثيل، وبذلوا مساعيهم في حدود تخصصاتهم لحمل أصول و فروع الرسالة الإسلامية، وإيصالها إلى من ورائهم مصقولة متماسكة كما هي في طبيعتها الأولى، وطبّقوها –كذلك–بكل إمكاناتهم– واضحة في الواقع البشري المعاش، يصدق العملُ منهم القولَ.

٤–٢ الرابطة بين الخلف والسلف (التلمذة):

ويمتاز هذا الدين بميزة تحمّل العلم، واستمراريةِ التعلم والمطالعة المتجددة والقراءة الواعية، وإيجاد ساحات صالحة للتلاقح الفكري عبر العصور بين الطالب و المعلم. و قد أصبح هذا جانبا مهما في أدبية علوم الحديث باسم "الإسناد"، ذلك "الفرقان"– على حد تعبير الإمام ابن تيمية ــ عليه الرحمة ــ :"الذي يُميز به الصدقَ والكذبَ الجهابذةُ النقادُ. وجعل (الله) هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، لتدوم بهم النعمة في الأمة، ويظهر بهم النور من الظلمة، ويحيا بهم دين الله الذي بعث رسوله ويبين الله بهم للناس سبيله"[٣١].

و لم تزل هذه النعمة الإسنادية لها أثر ومشابكة واضحة في جميع الأصعدة السلوكية والفكرية والحضارية، وهي تُعبّر عن امتداد الإسلام، و ترسيخ الشرائع والأحكام، وإيصالها متلألئة إلى الأجيال المقبلة، لبناء حاضرها وحضارتها على أسس ثابتة.

ونظرا إلى المدى البعيد الناجح لهذه الثنائية الطيبة يقول ابن المبارك–عليه رحمة الله–: "الإسناد من الدين، فلولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"[٣٢].

وهذا التلاقح الفكري أو الإسناد والتلمذة–بالتعبير الأكثر الدقة–ظاهرة من الظواهر التي فاقنا السلف الصالح بها جراء رعايتهم لها واستيفائهم حقها، وبناء حياتهم على مقتضياتها، حيث يأخذ الشيوخ أنفسهم بأخلاقيات الإسلام بالإضافة إلى التزامهم الكامل بما أوجبه على الفرد المسلم أو استحب له فعلَه من العبادات والمعاملات، فتجلو شفافية الدين و روحانيته عليهم، الأمر الذي يدعو طلاب العلم خصوصا، والشعب عموما، إلى تكثيف الاهتمام للتأدب بآداب الإسلام والتخلق بأخلاقه المجسدة المرئية على شخص هذا العالِم وذاك.

العلوم الشرعية، إنما تفهم فهما صحيحا عن طريق التلقي والتلمذة على المتخصصين، فيُبيّنون للآخذين منهم ما يُعمل به، وكيفية العمل، وضوابط العمل، و ساعات الأخذ والترك، وهو ما قاله عبد الله بن وهب–رحمه الله تعالى– :"لولا أن الله أنقذني بمالك والليث بن سعد لضللتُ ! فقيل له: كيف ذلك ؟ قال: أكثرتُ من الحديث فحيّرني ! فكنت أعرض على مالك و الليث، فيقولان لي: خُذْ هذا و دَعْ هذا"[٣٣].

وصونا للعلم الشرعي، كي لا يضيعه تلاعب العابثين، ولا يدسّ المتطفلون أنوفهم فيه يُقال من قديم:"لا يؤخذ القرآن من مُصْحَفِي، ولا العلم من صُحْفِيّ"[٣٤]. المراد بالمصحفي هو الذي يبدأ ــ رأسا ــ بقراءة القرآن من المصحف الشريف، دونما سابقة تلمذةٍ وعرض على متخصص، يُلقنه المُدود والغنَن، ومخارج وصفات الحروف، وكيفية الانطلاق والوقوف.

والصحفي بالنسبة للحديث و سائر العلوم، هو الذي يقحم نفسه في قـــراءة العلـــوم كعلوم الحديث، وشرح فقهه، دون تحمل مشاق دراسة مصـــطلحاته وتنزيلـــها منازلهـــا، والغوص في بطون علم العلل، والحكم على الأسانيد بمعونة المتخصصين.

ويوم تكون روحانية العلم مجسّدة على المفاصل والأعضاء، و تخرج المواعيظ والعبر من القلوب الخاشعة، فإنها سرعان ما تشقّ طريقها إلى قلوب أخرى ضارعة، و تعمل عملها. لذلك ترى الناس–في بعض الأحايين–يلقون جزءا من انطلاقاتهم على مجرد تأمل هـــدي العلماء بالإضافة إلى النقل الشفهي. قال الإمام أبو حنيفة–رحمه الله تعالى–:"الحكايات عن العلماء و مجالستهم أحب إليّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم و أخلاقهم"[٣٥].

وقد وجدنا أنموذجة فريدة في مقولة ابن سيرين وهديه–إنه رحمة الله عليه–يقول:"كـــانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم"[٣٦].– و لعل هذا الاعتبار هو الذي جعل ابن سيرين نفسه يبعث–على ما يرويه مالك–"رجلا، فينظر كيف كان هديُ القاسم بن محمد بن أبي بكر وحالُه"[٣٧]. ومن قبل كل ذلك قد قال النبي ﷺ :"اهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد"[٣٨].

وعلى المعنى نفسه–كذلك–يقول جد أبي عبد الرحمن السلمي:" من لم تُهْدِك رؤيتُـــه– فاعلم–أنه غير مُهذّب"[٣٩].

المتخصصون في علم التربية عموما و التربية الإسلامية خصوصا، متفقون على عظمـــة هذه النقطة، لذلك لم يفتر اهتمامهم على توجيه الطلاب إلى التشـــبث بهـــذه الظـــاهرة المباركة– إن صح التعبير– وممارستها عمليا، لأنها تمثل الالتزام لمبادئ العلم الموروثة منـــذ عهد النبي ﷺ وأصحابه، وهي من جهة أخرى توطـــد العلاقـــة المتينـــة بـــين "الشـــيخ" و"التلميذ"، يتربّى بـــ"لِحاظِه قبل ألفاظه"، حتى يتم التقليح التربوي وتنضـــج الأفكـــار، وترسو الحقائق الإيمانية في جذور القلوب.

والشيخ الشاطبي من أولئك الأعلام النبلاء التربويين، الذين لهم يد طولى في توضـــيح أمثال هذه الحقائق التي كادت تخبت فاعليتها في هذه العصور المتأخرة. فإنه يجعـــل مـــن

أمارات العلم المتحقق: "الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بآدابه"، ويعلل ذلك بما"علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن"[٤٠].

الإمام اللالكائي– وهو من مَشْيَخَة الحديث– يقول وهو يمتدح الجيل الأول الذين: "أخذوا الإسلام عن النبي ﷺ مباشرة، وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة من غير واسطة، ولا سفير بينهم وبينه. وحفظوا عنه شفاها، وتلقوه من فِيْه رطبا، وتلقنوه من لسانه عذبا، واعتقدوا جميع ذلك حقا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينا، فهذا دين أخذوا أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة، ولم يشُبهُ لبس ولا شبهة، ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصافة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكف، وتمسك خلف بسلف، كالحروف يتلو بعضها بعضا، و يتّسق أخراها على أولاها رصفا ونظما"[٤١].

يحرص الطالب أن يكون شخصية متعدد الجوانب في العلوم الوثيقة الصلة، لتنمو استعداداته وتبرز مواهبه، و تنفتح طاقاته، و يمتد أفقه، و يستفيد– قدر ما يستطيع ــ من المجالات العلمية الكثيرة، وتعليقات المتخصصين في الصحف والمجلات العلمية، وسائر وسائل الإعلام المرئية و المسموعة والمقروءة، حسب ما يقول أئمة المالكية: أشهب ومطرف وابن الماجشون و أصبغ– رحمة الله عليهم– "لا يصلح أن يكون صاحبَ حديث لا فقه له، أو فقيها لا حديث عنده، و لا يفتي إلا من كانت هذه صفته إلا أن يُخبر بشئ سمعه"[٤٢]. وصاغ الإمام ابنُ الجوزي–رحمه الله تعالى– نفس العبارة صياغة بليغة بلفظ:"ينبغي لكل ذي علم أن يُلمّ بباقي العلوم، فيطالع منها طرفا، إذ لكل علم بعلم تَعلُّق. وأقبح بمحدِّث يُسأل عن حادثة (فقهية) لا يدري، وقد شغله عنها جمع طرق الأحاديث. وقبيح بالفقيه أن يُقال له ما معنى قول رسول الله ﷺ كذا، فلا يدري صحةَ الحديث، ولا معناه. نسأل الله عز وجل همة عالية لا ترضى بالنقائص بلطفه ومنِّه"[٤٣].

آمين، وذلك كلام جميل، و يوافق قول الإمام يحي بن معين ــ رحمه الله تعالى ــ:"التفقه في مَفاد الحديث نصف العلم، و معرفة الرجال نصف العلم"[٤٤].

٥ــ٢ واقعية العلم الإسلامي في صورة العدالة:

وأمة محمد ﷺ في مجموعها مزوّدة بالإعداد النفسي منذ خلقها. إنها أمة عادلة، تمتاز عن سائر الأمم بالصلاح والتوفيق السديد، وكان لها كيانها الممتاز، يقل في دائرته الانسلاخ من الدين والتفسخ الأخلاقي، ولا يطغي عليها الكفر البوّاح كليا. وقد عبّر عن هذا القرآن بقوله:"كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"[٤٥] ويقول:"وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكون شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا"[٤٦] .

إن "الخيرية" هناك مفسّرة بـ"الوسطية" هنا، والعكس بالعكس، وهو تعبير قوي على صلاحية الأمة بمجموعها، وعلى مقدمتها العلماء الحاملون الرسالة الإسلامية على أكتافهم من أول الدعوة إلى اليوم.

إن فاعلية العلم تُعرف في العلماء، لأنها تتمثل في التفكير الموضوعي ومَضاء العزيمة، والاستنتاج الصائب لبناء شخصية جادة، وتنقية قدراتها، لقبول الدفع والانقياد نحو العمل الصالح واتباع جادة الحق والسلوك الأثير، كما قال الله تعالى:"الذين يبلغون رسالات الله، و يخشونه، و لا يخشون أحدا إلا الله، و كفى بالله حسيبا"[٤٧].

قال الإمام الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ و هو يحدد من يسمى "عدلا" شرعا:" لو كان العدل من لا ذنب له، لم نجد عدلا. و لو كان كل مذنب عدلا، لن نجد مجروحا؛ ولكن العدل من اجتنب الكبائر، و كانت محاسنه أكثر من مساويه"[٤٨].

لم تزل هذه المعاني حية نابضة ومجسدة في الشخصيات الإسلامية و رموزها في العصور المختلفة، وإن تخلل انحراف عن منهج السنة، نتيجة رفاهية و تَرَف فكري ومادي دخل على الأمة خصوصا من قِبَل الأمم المعادية لها بهدف صرفها عن الإسلام، بيد أن حملة العلم أولئك الأكياس الفطناء العدول، لم ينخرطوا في سلك ذلك الانحراف الترفي، فبقوا عاضين على أصول الجد والعناية، يرسمون أعمالهم وفق المنهج التربوي الإسلامي المشروح سابقا.

وإننا محتاجون –حقا– في هذا العصر الذي كثُرتْ فيه الفوضى الفكرية وثقافة الإباحية، وحاول أعداء الأمة المسلمة عَوْلَمة كل شئ، وتفكيكه أو تنظيره تنظيرا سلبيا ضد الإسلام، فإننا– مجددا– محتاجون إلى تربية قويمة المبادئ والأهداف، قوية النفوذ والفاعلية، تبدأ من البيت الذي هو الأساس، حيث يزوّد الطفل بالحصانة الذاتية، حسب ما هو الصورة المتبعة في المنهجية التربوية للسلف الصالح، حيث يقوم الآباء في البيت والأساتذة في المؤسسات التربوية بتشخيص مقومات العدالة ، ويجلوها عيانا للنشء، مرتبطة بتطبيق العلم، والممارسة الجادة لكل ما يمت إلى الحقائق الإسلامية بصلة، في آفاق النفس والمجتمع، (حتى على الشوارع والأسواق و المنتزهات)، ليرسخ في عقلية النشئ ضبط النفس، و ربط الغايات بوسائل الوصول إليها، وتحليلها على ضوء العقيدة الإسلامية، لتتروض عليها طباعهم، وتَأْنس بها جوارحهم كذلك.

ومن المفيد أن نقل صياغة تَوْعِوِيّة تربوية معطاة من امرأة محتشمة ومثقّفة بثقافة إسلامية عالية، وهي مع تَوَغّل عصرها في القدم، تفوق كثيرين ممن يزعمون التنور والريادة، من كبار فلاسفة التربية الحديثة. وهذه المرأة المسلمة من السلف الصالحات، وهي أمُّ الإمامِ سفيان بن عيينة ــ رحمهما الله ــ إنها نادت ابنها هذا، وهو صغير:"يا بني خذ: هذه عشرة دراهم ــ و تَعَلَّم عشرة أحاديث، فإن وجدتها تغيّر في جلستك ومشيتك، وكلامك مع الناس؛ فأَقْبِل عليه، وأنا أُعِينُك بمغزلي، و إلا فاتْركه، فإني أخشى أن يكون وبالا عليك يوم القيامة"[٤٩].

لا ريب أن هذا التوجيه الوجيز الكلمات، له أثره البالغ في تكوين شخصية ابنها الإمام.

إن العلم الذي يغيّر الجلسة و المشية ويهذب النطق، ويخفف من حدة الحدق، والمرتبط – أساسا وغاية – بيوم القيامة، لا بد –بالضرورة– أن يؤثر إيجابيا في السلوك، ويُفعم الشعور بالجدية، ويزرع في العاطفة الاهتمام القوي والحماسة الصادقة. وجدير أن يخلق

إرادة فعّالة، تشمل بحزمها الأعضاء والأحاسيس، وتعمّر الضمير بكل نافع طيب وصالح مُثمِر.

و العدل بمفهومه اللغوي هو "الحُكم بالحق" كما قال شيخ اللغة الأزهريُّ. و من ثَم يكون الرجل العدل حرَكيا نشِطا، ذا ضمير حي، متصلّبا على الحق الذي بدا له، قد حرّر عقله من التبعية العمياء والتقليد الجاف، ومن الطمع أو خوف أحد غير الله؛ لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا تطغي عليه الأنانية وجحود الحق، ولا تستهويه الزخارف الدنيئة والزينة الزائفة.

وقد لاَحَظَ كلَّ هذا وفوقه الإمامُ ابنُ عبد البر حيث أثبت أنّ:"كل حامل علم ، معروف العناية به، فهو عدل، محمولٌ أمرُه ــ أبدا ــ على العدالة حتى يتبيّن جرحُه، لقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ :" يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله.."[٥٠].

و قد وافقه عليه جماءُ غفيرة من العلماء المتقدمين و المتأخرين، و لا يخفى أنه مقتضى قول الحسن البصري- رحمه الله تعالى-:" كان الرجل إذا طلب العلم لم يَلْبَث أن يُرى ذلك في بصره، و تخشّعه، ولسانه و يده، و صلاته و زهده"[٥١]. و صرّح به الإمام ابن المواق المالكي متأكدا أن :" أهل العلم محمولون على العدالة حتى يظهر منهم خلافُ ذلك"[٥٢].

وكذلك الشيخ النووي ظل يؤيّد نظرةَ التعديل لحملة العلم، ويقول إن الحديث" إخبار منه ﷺ صيانة العلم وحفاظه وعدالة ناقليه. وإن الله يوفّق له في كل عصر خلفا من العدول يحملونه، وينفون عنه تحريف الغالين وما بعده، فلا يَضيْع.

وهذا تصريح منه بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع، و الحمد لله.

وهذا من أعلام النبوة، فلا يضر مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئا من العلم، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه ، لا أن غيرهم لا يعرفون شيئا منه"[٥٣].

وبمثل هذا قال كل من ابن سيد الناس والذهبي[٥٤]. وذهب إليه كذلك أبو الحجاج المزي، كما أبدى الشيخ ابن الجزري تأييده للاتجاه نفسه، وقال:"إن ما ذهب إليه ابن عبد البر هو الصواب، وإن ردّه بعضُهم"[٥٥].

ولست أدري كيف جاء فهم الحافظ العراقي ــ رحمه الله تعالى ــ لكلام ابن عبد البر على وجه معاكس، فإنه راح ينقده بأن جملة "يحمل هذا العلم: صيغة خبرٍ يُراد بها الأمر". وأيّد نظرته بأن بعض الروايات تقول :"لِيَحْمِل هذا العلم: بصيغة الأمر". واختتم كلامه مؤكدا أنه:" لم يَبْق له مَحمل إلا على الأمر. ومعناه أنه أمَر الثقات بحمل العلم، لأن العلم إنما يُنْقل عن الثقات"[٥٦].

لعل الحافظ العراقي يرى أن ازدواجية "العلم" و"العدالة"، أو ما نسميه بإطلاق أشمل "مكارم الأخلاق" و"العمل بالعلم"، وحدة متماسكة، لا يطرأ عليها انفصال واقعي في أي حال من الأحوال. وهذا ــ بالحق ــ هكذا ينبغي أن يكون، و هو ما ظل القرآن والسنة النبوية يدعوان المسلمين إليه، ولكن ليس صحيحا ألا يدور عدم وجود انفصال واقعي أو نظري بينهما في الحسبان. و النظرة كمثل هذه نظرة غير واقعية تنقصها المشاهدة، إذ لا تلازم بين "المعرفة" و "الفضيلة"، و إن كان المتوقع التشابك فيما بينهما واقعيا.

فإن العلم قد أصبح يحمله العدل ذو المروءة، ومخدوش العدالة ــ كذلك ــ على سواء، حتى عُدَّ من حملة العلم وخاصة بين صفوف رواة الحديث ــ و الحافظ العراقي رحمه الله تعالى من أعرف الناس بذلك ــ : أقول حتى عُدّ من كانوا موصوفين أو متهمين بالكذب في عين علماء الحديث أمثال محمد بن عمر الواقدي و سليمان الشاذكوني ومحمد بن يونس الكديمي، و محمد بن زكريا الغلابي و غيرهم، الذين كانوا يُطلق عليهم اسم "الحفّاظ" لكثرة ما حفظوا من الحديث. و لم نزل– كذلك– في العصر الراهن نرى بعض الموصوفين بالعلم يرتكبون ما ينقض الدين ويناقض التقاليد القويمة، هذا أوّلا.

و ثانيا، على فرض أن نداء الحديث موجّه إلى أهل العدالة وحدهم، فإنه لا يسد الطريق لغير العدل حتى يسمع العلم، ويبتعد عن زيغه وينصاع بنور العلم نحو الفلاح، و يكتسب العدالة ساعتئذ.

ثالثا، وقد اعترض ابن الوزير اليمني ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك التوجيه للعراقي بأن: "الأصل: الخبر، والأكثرُ –(يعنى من رأي العلماء) ــ أن يقرّ على ظاهره، والتأويل من غير ضرورة لا يجوز".

هذا بالإضافة إلى أن رواية "لِيَحْمِل" ضعيفة عند العراقي نفسه. ويقول ابن الوزير وهو يشخّص سبب ضعفها :"إنها معلولة بمخالفة جميع الرواة، إذ كلهم رواه بلفظ الخبر، فالوهم أبعد عن الجماعة"[٥٧].

والإنصاف أن لفظة "لِيَحْمل" في رواية، وكونها في أخرى "يحمل" وجهان لعملة واحدة كما يقال، أو أقول اعتباران لمعنى واحد، ولا يقع أيُّ تناقض في مضمونهما، لثبوتهما معا في المجموع، فيكون المراد ــ إذًا ــ في الاعتبار الأول مطالبة العدول بحمل العلم، و في الثاني الإخبار بأنهم أصحاب هذه العملية.

وقد ضمن الشيخ ابن القيم ــ رحمه الله ــ هذا الاتجاه في قوله:" إن العلم الذي جاء به، يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب. وهذا يتضمن تعديله لحملة العلم الذي بعث به، وهو المشار إليه في قوله "هذا العلم". فكل من حمل العلم المشار إليه، لا بد وأن يكون عدلا. ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته، اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء ولا ريبا.

إن من عدله رسول الله لا يسمع فيه جَرح. فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه، كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ. ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض.

وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه، كأهل البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم، فما حمل علم رسول الله إلا عدل؛ ولكن قد يُغلط في مسمى "العدالة"، فيظن إن المراد بالعدل من لا ذنب له، وليس كذلك، بل هو عدل مؤتمن على الدين، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه، فإن هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية"[٥٨].

٦ــ٥ مقوّمات العدالة:

إن الحديث المشروح –في حد ذاته– يحمل معه معالم واقعية الإسلام، وكما يتضمن شرائط الحيوية والنشاطات الدعوية الواسعة المدى، حتى يدوم اتصال الماضي الصالح بالحاضر، ويسري من خلاله اليُمن والبركة. وإنه يحدد مهمات عظيمة، يحمل صاحب العلم الجاد نفسه عليها، فتؤثر فيه هو بالذات، و يؤثر هو بدوره في غيره، و تتميز مسيرته الهادئة التي يحكمها العلم والعدالة والبصيرة عن هجمات الانحراف، لأنه ممتلئ بالإيمان القوي الفعال الذي يدفع صاحبه إلى الصدع بالحق، و الانتصار للصواب.

إن الحديث يريد بالعدل أن يعرف نقاط القوة فيه، ويميزها عن نقاط الضعف فيه، من التكبر والحسد والغرور والتشبع بما لم يعط، وتوليد الكلام الزور، فينطلق –بهمة– للتخلص من الضعف وإغلاق منافذه، لأنه رجل أهداف صالحة، جعل أهدافه –دائما وأبدا– نُصْب عينيه، يستعمل طاقاته جاهدا للوصول إليها، و يتحمل المشاق والمصائب، ويضحي بالغالي و النفيس في سبيل إرسائها.

إن الذي تدل تبجّحاتُه ومظاهره على العلم، ولكنه نتيجة الْتِوائه عن تطبيق العلم والشعور برسالته، و نَفَض يده مصرا على عدم المبالاة بممارسة المهمات المذكورة في الحديث، لا بد –في نهاية المطاف– أن يؤديه هذا الإعراض والإجحاف بالعلم إلى فقدان شخصيته العلمية، بل وشخصيته كمؤمن، فيصبح ممسوخ المعنويات لا يحس بكرامته، ولا يرفع رأسا إلى الربانية، ويعود عليه وبالُ إبائِه عن اقتباس نور العلم والسير في ضوئه، بما لا يُحمد عُقباه، بحيث يعدم هويته الإيمانية، ويتسكع في دياجير الظلمات، ويضيع نفسه ويرتكب ما يستهجن صدوره عن العوام بله العلماء. إنه " لا ينبغي لأحد أن يعلم أن عنده شيئا من العلم أن يضيع نفسه"[٥٩]– حسب ما يقول بعض السلف. وإنه كما يقول جابر بن عبد الله ﷺ: "ينبغي للعالم أن يغسل قلبه، كما يغسل الرجلُ ثوبَه من النجس"[٦٠]. ويقول أبو الدرداء ﷺ:"لا تكون تقيا حتى تكون عالما، ولا تكون بالعلم جميلا حتى تكون به عاملا"[٦١]. و بكلمات الإمام الزهري:" إن هذا العلم أدب الله الذي أدّب به نبيه –

عليه الصلاة والسلام-. وأدّب النبي أمته، و هو أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه. فمن سمع علما فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله تعالى"[٦٢].

أما الذي تغاضى عن مغبة الانصياع نحو الفجور، وركب هواه و لم يرجع، فإنه لا يستحق الوصف بالعدل، بمفهوم الكلمة الأصيل، وبالتالي ينزع الله تعالى عنه مهابة العلم، ويطفأ في قلبه شرارة الحكمة و الإيمان الفاعل. قال الله تعالى:" يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم"[٦٣]، وقال:"الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. وإن الله لمع المحسنين"[٦٤]. وقال:"يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون".[٦٥] وقال:"من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى"[٦٦].

حينما يتفاعل العلم النافع مع العمل الصالح تفاعلا إيجابيا، فسرعان ما تنجم عملية راشدة: تكشف الزيف، وتنفي الباطل، فتُطاردهما ، ويُحلّ محلهما إظهار معالم الدين، وإصلاح الواقع المعيش.

وإنها عملية الدفاع والذب عن العلم الذي جاء به النبي ﷺ كيلا تشوبُه الشبهاتُ، ويفسد بالشهوات..

إنها عملية جهادية يقوم بها العدل بالألْسنة والأقلام والأسنّة..

والمعايير التي تنضبط بها عملية كشف الزيف ونفيه المذكورة أعلاه، هي العمل بمحكم الكتاب والسنة الثابتة، شريطة أن تجري هذه العملية بالروح النقدية على أسلوب الحكمة والبصيرة، كما يقول القرآن:"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن"[٦٧]. ويقول:"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني"[٦٨]. ويقول: "ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا"[٦٩].

والمهمة المنوطة بهذا الكشف والنفي، تتمثل في مقومات العدالة الثلاث، كما شخّصها الحديث:

١-نفي تحريف الغالين.

٢- ونفي انتحال المبطلين.

٣- و تأويل الجاهلين.

وهي مقومات تحتاج إلى شرح يُظهر أهميتها وضرورتها في تكوين حامل العلم العدل.

٢-١ التحريف سناد الغالين:

تدور لفظة "التحريف" عند رجال اللغة حول: تغيير كلمة عن معناها، وصرفها إلى مفهوم آخر لم تعهد به، والعدول بها إلى مفهوم آخر غير الموضوعة له، ولكنها قريبة الشبه به. والإنسان -كما يقول اللغويون- يكون على حرف من أمره؛ بمعنى أن ينتظر ويتوقع، فإن رأى من ناحية ما يحب قَبِل، و إلا مال إلى غيره[٧٠].

التحريف في المعاني الشرعية هو: مسخ شعيرة من شعائر الدين، وطمس معالمها، وتغيير مقوِّماتها بنزع مفهومها الشرعي بعيدا عن موقعه الحقيقي.

و"الغلو"، الأصل الذي ترجع إليه كلمة "الغالين"، وهي جمع "الغالي". و الغلو في اللغة يعني التجاوز لقَدَرِ ما يجب في القول والعمل والاعتقاد[٧١].

واقتران التحريف بالغالين وتخصيصهم به، يدل على أنه الوسيلة الوحيدة التي من طريقها يتمكن الغالي من إنفاذ مخططه، وتسيير دفة عمليته التحريفية. وهو جسره الذي يستعمله للوصول إلى هدفه بحدة و صرامة حاسمتين-كأنه صاحب الحق-. فالغلو سناده تحريف النصوص، والتداخل بينهما واضح لحد العيان.

وإضافة عملية التحريف إلى " الغلو"، من جهة أخرى، تدل على أن الإسلام "وسط"، لا يزلق بصاحبه إلى التشدد ولا ينحرف به عن الخط المستقيم. وقد نهى النبي عن الميل إلى الغلو قائلا:"إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك الذين من قبلكم بالغلو في الدين"[٧٢]. وقال أيضا:"هلك المتنطعون"-قالها ثلاثا[٧٣].

وقد قال الشيخ الألباني كلمة مضيئة، يجدر بنا إثباتها هنا، يقول :"لقد جرى علماء الحديث– جزاهم الله خيرا– على قواعد علمية هامة جدا في سبيل المحافظة على تراث نبي الأمة، سالما من الزيادة والنقص، كما لا يجوز أن يقال عليه ما لم يقل، فكذا لا يجوز أن يهدر ما قال أو يعرض عنه، فالحق بين هذا وهذا، كما قال تعالى:"وكذلك جعلناكم أمة وسطا"• ومما لا شك فيه أن تحقيق الاعتدال والتوسط بين الإفراط والتفريط، وتمييز الصحيح من الضعيف لا يكون بالجهل أو بالهوى• وإنما بالعلم والإتباع، وأن ذلك لا يكون إلا بالفقه الصحيح عن رسول الله ﷺ• وهذا الفقه لن يكون إلا بمعرفة ما كان عليه الرسول من قول وفعل و تقرير•

وإذ الأمر كذلك، فإنه لا يمكن أن ينهض به إلا من كان من الفقهاء عالما أيضا بعلم الحديث وأصوله أو على الأقل يكون من أتباعهم وعلى منهجهم• ولقد أبدع من قال:"أهل الحديث هم أهل النبي، وإن لم يصحبوا نفسه، أنفاسَه صحبوا•

وهم المقصود بالحديث المشهور–على الاختلاف في ثبوته–يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"[٧٤]•

وتتنوع أساليب المحرّفين الغالين في اتخاذ أقرب طريق للوصول إلى غرضهم، وتشهيره بين الناس• فقد يحرفون "الكلمة" لفظيا، إذا كان "التحريف اللفظي" هو الأنسب، و يخدم نظرهم، و إلا فقد يلجؤون إلى "التحريف المعنوي" ليؤدي إلى نفس الغرض الذي يقصر عنه التحريف اللفظي لو استخدم مكانه• وكلا التحريفين مؤداهما واحد، وهو قلب مفهوم شعيرة دينية إلى مفهوم آخر، أو تضمينها ما لا تتحمل من المعاني الباطلة•

ا– التحريف اللفظي:

التحريف اللفظي له مظاهر، و وجوه كثيرة، و لعل أبرزها:

ا–ما يقوم به بعض الغالين من حذف كلمة معينة، واستبدالها بالأخرى، أو إضافة حرف، أو نقصه من نفس الكلمة لتخدم غرضهم• وقد يكون بطمس كلمة بأسرها و إعادة

صياغتها في قالب آخر، ليظهر الهدف الجديد بجلاء. وقد فعل اليهود مثل ذلك لما طالبهم الله تعالى بأن يقولوا "حطة؛ نغفر لكم خطاياكم"[٧٥]، قالوا حبة في شعرة[٧٦]؛ استبدلوا "حبة" بـــ "حطة"، فذمهم الله تعالى على ذلك.

ب- وربما يكون التحريف بتقديم كلمة أو تأخيرها عن موضعها الذي وضعها الشارع. وقد فعل هذا بعضهم، و هو في صدد حشده للنصوص الدالة على رؤيـــة الـــنبي ﷺ لله سبحانه وتعالى في ليلة الإسراء. ذكر أن الرســـول ﷺ قـــال وهـــو يتحـــدث عـــن الله تعالى:"نُوْرَانِىّ أراه"-نُوْرانيٌّ بياء النسبة إضافةً إلى النور. وهو تحريف ظاهر للحديث. فقد جاء الحديث في صحيح مسلم هكذا:"نُوْرٌ أَنّى أَرَاهُ"[٧٧]- بالفصل بين كلمة "نور"، وحرف "أنّ". لكن المحرّف قرّب بينهما ليدل الحديث-نصا-على مقصوده. و يقول القاضـــي عياض-رحمه الله- و هو إمام راسخ في ضبط الألفاظ النبوية، مؤيدا ما أقـــول، و موهنـــا الصيغة المحرفة:"لم تقع لنا هذه الرواية، و لا رأيتها في أصل".

والحديث-أساسا-يدل على عكس ما أراده المحرف، فهو يشيد بمذهب مـــن يـــرى أن النبي ﷺ لم ير الله قط، لا في ليلة الإسراء ولا في غيرها. جاء الحديث هكذا في صـــحيح مسلم: عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال: نور أنى أراه". وفي رواية مجاورة لهذه في صحيح مسلم نفسه؛ قال ابن شقيق قلـــت لأبي ذر: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لسألتُه ! فقال عن أي شئ كنت تسأله ؟ قال: كنت أســـأله هل رأيت ربك ؟ فقال أبو ذر قد سألته ! فقال: رأيت نورا".

و هذا يعني أنه ﷺ رأى حجاب ربه، كما جاء في رواية أخرى مجاورة لموقع تلـــك في صحيح مسلم عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات. فقـــال : إن الله لا ينام و لا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط، و يرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبـــل عمـــل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه نور، لو كشفه لاحترقت سبحات وجهه مـــا انتهى إليه بصره من خلقه".

هذه المسألة مبسوطة في الكتب الكبيرة، و إنما قصدت التدليل على تحريف المحـــرفين، وتبيان وجه الحق. و لنعد فيما بدأنا به.

واحتال بعض الشيوخ، ليقلل – من جهة – من أهمية إنكار المنكر، وتغـــييره باليـــد واللسان، و يرفع من شأن الخمود والاستكانة والاكتفاء بغضبة في النفس دون أن يظهـــر تمعّرٌ على قسمات الوجه إزاء المنكرات، فحَمَل هذا الحديث:"من رأى مـــنكم منكـــرا– فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"– حمـــل اسم الإشارة "وذلك"، على أنه يشير إلى المذكور الأول. وأضعف الإيمان عنده هو المغيّر باليد. وبنى تفسيره هذا على أساس أن اسم الإشارة درجات: فـــ "ذا" للأقرب المذكور، و"ذاك" للمتوسط المذكور، ثم "ذلك" للبعيد المذكور. والرســـول لم يســـتعمل "ذا" و لا "ذاك"، و إنما استعمل "ذلك"، وقال إنه أضعف الإيمان. وهو–في بداهة ذلك الشـــيخ– يعني من غيّر باليد.

وهذا تحريف غال، فاللغة لا تساعد على هذا التفسير من قريب ولا بعيـــد، وكـــذلك النصوص من القرآن والسنة المتضافرة. فإن التغيير باليد والجهاد بالنفس من أعظم أنواع الجهاد وتغيير المنكر. والتغيير في النفس أو بالقلب هو المرتبة الأخيرة، ولـــيس وراءهـــا مثقال حبة خردل من إيمان. ولا مجال–طبعا–للمقارنة بينهما.

ثم إن لفظة "ذلك" صالحة لتعود إلى الأقرب المـــذكور، والأمثلـــة وفـــيرة في القـــرآن والسنة. منها قوله تعالى:"ذلك الكتاب لا ريب فيه" –والقارئ يقرأ ربما يكون المصحف في يده، أو هو يحفظ القرآن عن ظهر قلب، رغم ذلك يردد "ذلك الكتاب"، وهو يعلم أن المعنيّ به القرآن. ونظائر ذلك كثيرة.

جـــ وقد يستغل المحرّف الغالي الوساعة التي تتمتع بها اللغة العربية مثل اتحاد الكلمـــتين –مثلا– حيث يرجعان إلى أصل واحد من حيث الاشتقاق، رغم اختلافهمـــا تمامـــا في النطق والمعنى، وذلك كثير وروده في اللغة العربية.

ومثاله القريب كلمة "قال"؛ فقد تأتي بمعنى نام نومة النهار بعد الزوال، كما قال الله تعالى: "وكم من قرية أهلكناها بياتا أو هم قائلون"[٧٨]

وقد تأتي بمعناها الأكثر استعمالا وهو ذكر الشئ أو النطق بالكلام. ومعنى الكلمتين مختلف. فالأولى من: قَيَلَ يَقِيْلُ قَيْلُولَة[٧٩]. وأصل الثانية: قَوَلَ يَقُوْلُ قَوْلا. ولكن كلاهما في الفعل الماضي "قال"، و يجتمعان في اسم الفاعل "القائل"– القائلون، وأصل اشتقاقهما من "ق و ل"[٨٠].

وهذا مثال فقط في اللغة، لتقريب الفكرة. فقد يصطاد الغالون أمثالَ هذه المصادفات في الألفاظ الشرعية، فيتخذونها لغمة سائغة، حيث لا يحتاجون إلى بذل مجهود كبير في تبرير غلوّهم.

اتخذ المعتزلة قول الله تعالى:"وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، فحرفوا كلمة "ناظرة" إلى مفهوم: منتظرة، و حَرْفُ "إلى" حرّفوه إلى اسم "آلآء"، ثم إلى جمعه، وهو "إلى". وقالوا حينئذ تعني الآية: تنتظر وتترقب هذه الوجوه الناضرة ما يأتيها من نِعَمِ وآلآءِ ربها. و ليست تعني أن الوجوه تنظر وترى ربها–رأي العين– بأم عينيها.

وهذا تحريف ظاهر. فقد رد على هذه السخافة الشيخ القشيري حيث قال:"واحد الآلآء يُكتب بالألف لا بالياء". يعني يكتب هكذا: "إلاَ".

وكذلك أبو شامة، فهو بعد أن قال :" قد اجتمع في الآية قرينتان دالتان على أن المراد بالنظر في الآية: الرؤية. أحدهما: تعديته بحرف "إلى"...والثانية: اقترانه بذكر الوجوه"، استمر–من وجه آخر– يدحض الرأي القائل بأنها مفرد الآلآء، يقول"الكلمة في الآية مكسورة بلا خلاف، فلو كان المراد بها واحد "الآلآء" لقُرِئَت بالفتح، أو بالفتح و الكسر، فحيث أجمع على كسرها دل على أنها ليست تلك، إذ ليس في القرآن كله كلمة مجمع عليه، وهي على غير الفصيح من اللغة، بل إما أن تكون على الأفصح، أو الفصيح أو فيهما الوجهان. وحيث جاء في بعض القراءات على غير الفصيح لا يكون في كلمة مجمع

عليها كذلك، بل يكون خلافها أيضا مقروءا. و الأكثر ما عليه الأكثر من القراء. و من استقرا هذا العلم عرف ما ذكرناه"[٨١].

ومثال آخر ماثل في رأي الأحمدية (القاديانية) المنكرين لختمية رسالة محمد ﷺ. فقد أنكروا كل حجة تثبت كونه خاتما للنبيين و المرسلين، لأنهم أساسا يرون باب النبوة ما زال مفتوحا. ومن ثَمّ حرّفوا قول الله تعالى:"وخاتم النبيين"–قالوا: المراد بالخاتم هو خاتم اليد المعروف، فهو زينة اليد كما كان النبي محمد ﷺ زينة للنبين، وليس آخرا لهم و مغلاقا للنبوة. وقالوا إن خير ما يفسر به القرآن السنة، وقد جاء في الحديث أن الرسول ﷺ قال:"إن مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها و أحسنها، إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويعجبون منها، و يقولون : لو لا موضع اللبنة". و في رواية مسلم:"فجئتُ فخَتَمْتُ الأنبياء". و في لفظ أبي هريرة:"فجعل الناس يطوفون به، ويقولون: هلا وضعت اللبنة ؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"[٨٢]. و النبي وصف نفسه بالزينة في هذا الحديث، لأن موضع اللبنة في ذلك البناء موضع تزيين للبناء و تحسين له فحسب.

هكذا قالوا. صحيح أن خير ما يفسر به القرآن هو السنة، و لكنها هنا "كلمة حق يراد بها الباطل". وليس هذا يعني أن يؤخذ من السنة ما يشتهى، ويترك ما لا يشتهى. وهذا الحديث بألفاظه صحيح ، وقد جاء في حديث آخر أنه قال:"ولا نبي بعدي"[٨٣]، فيكون هذا الحديث هو المفسر لتلك الآية. كما أن الحديث الذي ساقوه هو نفسه يؤكد كون النبي ﷺ آخر النبيين، لأنه به اكتمل البناءُ.

ب– التحريف المعنوي:

وإذا لم يتمكن المحرّفون الغالون من التحريف اللفظي، فسرعان ما يهرعون إلى التحريف المعنوي، وهو وسيلة أخرى لها مظاهرها الكثيرة، ونكتفي بذكر مظهرين فقط منها:

ا–فقد يصنع المحرفون بدعتهم جاهزة، فيعمدون إلى نص من النصوص فيحرفوه معنويا يُغلف تلك البدعة، وكثيرا ما يتلمسون نصا متشابها فيجرّونه قسرا ليساند اتجاههم، مع أن النص بفصه ونصه وسياقه: سباقا ولحاقا يتبرأ من تلك الوجهة المشؤمة، ولكنهم لا يبالون.

وخذ على سبيل المثال قول الله تعالى:"واتقوا الله، ويعلمكم الله"، فإن بعض العلماء حمله–على ما يراه–برهانا على ما أسموه "العلم اللدني"، الذي يتأتى بعد الالتزام الشديد للتقوى بدون تعلم ولا مدارسة. وهذا بلا شك خطأ كبير. فإن الآية وردت في سياق أحكام الدَّين حيث قال الله تعالى:"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُم كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلاٍّخْرَىٰ وَلاَ يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلاَّ تَرْتَابُوٓاْ إِلاَ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلاٌّرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ".[٨٤]

سقت هذه الآية رغم طولها لتنطق تلقائيا على أن المقصود منها هو تعليم المسلمين أحكام المداينة، وعلى حد تعبير الإمام ابن جرير الطبري:"واتقوا الله"- خافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدود الله أن تضيعوه. ويعني-(ما زال الكلام لابن جرير)- "ويعلمكم الله"- يبين لكم الواجب لكم و عليكم، فاعملوا به، والله بكل شئ عليم".[٨٥] فليس هناك -في الحقيقة- رباط معنوي في حصول العلم نتيجة التقوى، كما يفسر كثير من الناس الآية عليه. إذ لو كان كذلك لكانت الجملة للشرط وجوابه، فيكون سياقها حسب التالي: اتقو الله و يعلمْكُم الله، بإسكان الميم جوابا للشرط. و يقتضي هذا السياق أيضا إبدال الفاء مكان الواو في "و يعلمكم"- فيصير "فيعلمكم"- ليظهر جواب الشرط في سياقه الحقيقي.

فبان بهذا الشرح الوجيز أن الآية ليست في شئ مما أكثر الناس الاستدلال بها فيه، من أن التقوى تكفل العلم، و تدرّ بالمعرفة على أصحابها، و تفيض عليهم بالعلوم و المكاشفات. قد ذكروا لمساندة ذلك بعض الأحاديث، وكلها مُخْتَلقة، منها:"من أراد أن يئتيه الله علما بغير تعلم، و هدى بغير هداية، فليزهد في الدنيا"-. نقل الشيخ العجلوني عن القاري يقول:"لم يوجد له أصل"- ثم عقب العجلوني عجبا:"و معناه صحيح مستفاد من قوله- عليه الصلاة و السلام-"من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم". - يدل تصرف الشيخ العجلوني-رحمه الله تعالى- أن الحديث المستفاد منه ثابت، و هو محل العجب، لأن الحديث موضوع باتفاق أهل العلم بذلك[٨٦].

ب- وربما يسلط المغالون افتراضات مغرضة وإشكالات متعددة على النص دون أن يلتفتوا إلى سائر النصوص النظائر في تلك القضية بعينها ليوفّقوا بينها ويستخلص النتائج منها، فليس هذا من هدف المغالين في شئ، بل إنما يريدون أن تضيع الحقيقية بين القوقعة والقيل و القال الذي افتعلوه، وهو مقصودهم.

مثال ذلك أن النبي ﷺ نهى في حديث أبي هريرة عن إلصاق ما لم يقله إليه، فقال:" من كذب علي، فليتبوأ مقعده من النار"، فحرف بعضهم معنى هذا الحديث، وقالوا إنما نهى

عن الكذب عليه فيما يخدش الدين، و يشوّه وجهه، ولكن الكذب له أو لصالح الـــدين، وصُنع ما يلفت النظر إليه، أو إلى جزئية دينية مهمة ليهتم بها المسلمون، و يتقربوا إلى الله عن طريقها، فلا مانع – في نظرهم– من اختلاقه. وقالوا :"إن كذبنا له لا عليه"[٨٧]–فرد عليهم المحدثون، حتى إن الإمام عبد الله بن المبارك–رحمه الله– بعد أن ذكر له أن أحدا من الكذابين كان يجتهد في صنع الأحاديث، قـــال قولتـــه المشـــهورة إن هـــذه الروايـــات الموضوعة:"تعيش لها الجهابذة"[٨٨].

و الغلو و التحريف يدخل في أبواب علمية و عملية كثيرة، و فيما يلي نذكر بعضا من أمثلتها في الأبواب المختلفة:

١–الغلو والتحريف في العقيدة:

العقيدة الصحيحة هي بؤرة التصور والعمل، وهي التي توجّه القصـــد إلى الأهـــداف النبيلة. وبدون العقيدة الصحيحة لا تقوم الحياة السعيدة. والعقيدة في الإسلام هي مـــا يعتقده الفرد المسلم من الإيمان بربه من حيث صفاته وأسماؤه وأفعاله. ويـــؤمن كـــذلك بالأنبياء والمرسلين من حيث صفاتهم الأخلاقية وكتبهم ونوعية واجبـــاتهم في المجتمعـــات المرسَلة إليهم. ويشمل الإيمان كذلك كل ما يُكنّه ضمير الغيب من الإيمـــان بالملائكـــة والقدر خيره وشره، والقبر ونعيمه و عقابه، ويوم الآخر، و ما فيه مـــن حشـــر ونشـــر، وحساب وميزان و حوض و صراط و جنة و نار.

بما أن الله تعالى غيب، فإن المسلم مطالب بأن يؤسس عقيدته على الإيمان الكامل بكل ما أخبر الله تعالى عن ذاته و صفاته و أفعاله، و أخبر به الرسول عنه كذلك، فيترك الأمر كما جاء النقل عنهما من غير تزيد أو تنقص. فالعقيدة جزء كبير من الإيمـــان بالغيـــب لذلك تقصر العقول والأفهام عن الإحاطة بها. فلا يستطيع أحد أن يخـــبر عنـــها إلا الله وحده، والرسول وحده، "وما على الرسول إلا البلاغ"، وعلينا التسليم.

وقد غالى طوائف كثيرة في تفسير نصوص العقيدة تفسيرا تحريفيا، فأقحموا في معاني الآيات والأحاديث ما لم تدل ظواهرها ولا مفاهيمها عليه. و وجّهوا منطوقها ليحمل مفهوما آخر، اعتقادا منهم بأن النصوص الواردة لا تفي بتوضيح العقيدة وتحديدها، وظنا منهم بأن خيالات العقل والتخرصات الفلسفية تُكَمّل النقوص.

جهم بن صفوان وجعد بن درهم و من على شاكلتهما من نفاة العقيدة الصحيحة، يرون أن الله لم يكلم موسى–عليه السلام–، ولا اتخذ إبراهيم–عليه السلام–خليلا. فهذا غلو وإفراط لأنه نفي لما أثبته الله تعالى و أثبته الرسول.

وجاءت المعتزلة والشيعة وبعض الطوائف، فقالوا إن أحاديث الآحاد لا تقبل في مجال العقيدة. فهذه مغالاة ظاهرة، وطرح لعدد كبير من الأحاديث بدونما برهان. فإن عصر الصحابة والتابعين خال عن كل أمثال هذه التساؤلات الهجينة:هل هذا متواتر أو آحاد؟ فقد كانوا يقبلون النصوص قبولا من الثقات في المجالات العقدية والعبادية، وفي كل شئ، بدون التفريق بين ما رواه العدد الغفير أو العدد القليل!

والعبارة بأن حديث الآحاد لا يُقبل لإثبات "العقيدة" عبارة غامضة، فماذا يعنى بـ"إثبات العقيدة"؟ أ يُعنى أسسُ العقيدة نحو إثبات وحدانية الله، ووجود الملائكة والجنة والنار مما هو أصول وأسس للعقيدة، أم يُعنى بها فروع العقيدة كإثبات اليد لله والعين والساق والعلو على العرش لله سبحانه و تعالى و نظائرها؟

فإن كان الأول هو المراد، فلا ريب أن حديث الآحاد لا يؤسس أصلا من أصول العقيدة، كأن يأتي حديث آحادي و يؤسس شيئا لم يعهد في الإسلام في شئ، كأن يقول إن هناك–مثلا–نبيا بعد محمدﷺ. فمثل هذا يرفض قطعا. وأما أن يأتي حديث بفرع من فروع العقيدة فلا يجدر الشك في قبوله و العمل به عقيدةً و شريعةً.

و يبدو لي أن هذه العبارة "لا يقبل الآحاد في إثبات العقيدة" كان المتكلمون الأوائل يستعملونها في محاوراتهم لنقض مزاعم اليهود والنصارى والمانوية وغيرها من فِرَق الشرك. فلما طال الأمد جاء المتأخرون واستعملوها خطأ في مقابل ما يسوقه المسلمون بينهم من

النصوص الشرعية الآحادية في شرح العقيدة و الشريعة، بدل استعمالها ضد تلك الطائف الزائغة، فعاد الأمر رأسا على عقب، وانقلب السلاح ضد المتسلح به.

إن إهدار أحاديث الآحاد و إقصاءها جانبا عن مجال العقيدة تحريف معنوي لها، لأنها كانت تقبل قبولا، ولكن تفسّر على غير وجهها تفسيرا تحريفيا، تقبل لأنها مروية في كتب الحديث الصحيحة، غير أن مفهومها يُتعرض له بالشرح المُغرض حتى يلتوى عن المقصود به.

٢- الغلو والتحريف في العبادة:

مَبْنى العبادة في الإسلام و معيارها شيئآن:

ا-إخلاص العبادة لله تعالى، فلا توجّه إلى أحد سواه، ولا يعبد ربٌّ غيره. وهو ما أوجبه الله على المسلمين:"وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين"[٨٩]، "وقال:"ألا لله الدين الخالص"[٩٠].

ب-متابعة السنة: تؤخذ كيفية العبادة وصورها من السنة مباشرة، لأنها تجسيد عملي للقرآن الكريم، وبيان تفصيلي له، وضمانة ربانية ألحقها الله تعالى بكتابه، كما قال الله تعالى:" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم"[٩١].

فالغلو في مقابل السنة هو البدعة، سواء كانت بزيادة أو نقص عما أوضحته السنة، فهو غلو، وابتداع في الدين. والبدعة قي تعبير الشيخ زروق: "لغة: الأمر المحدث. وشرعا: إحداث أمر في الدين، يشبه أن يكون منه، وليس منه. ومرجعه اعتقاد ما ليس بقربةٍ قربة على وجه الحكم بذلك".

وقال:"كمال العبادة بحفظها والمحافظة عليها، وذلك بإقامة حدودها الظاهرة والباطنة، من غير غلو ولا تفريط. فالمفرط مضيع، والغالي مبتدع، سيّما إن اعتقد القربة في زيادته"[٩٢].

وقد حذّر الله الأمم السابقة واللاحقة على حد سواء عن مغبة الابتداع في الدين، كما قال:"يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق"[٩٣]، وقال:"يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا و ضلوا عن سواء السبيل"[٩٤]. وقال الرسول:"إنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"[٩٥].

و وجّه إنذارا قويا إلى أمته قائلا:"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، وفي لفظ آخر: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[٩٦]. وهذا الحديث بلفظيه سيف ذو حدين، كما قال عنه الشيخ الإشبيلي كلمة مشرقة:"قد يعاند بعض الفاعلين بدعة سُبق إليها. فإذا احتُجّ عليه بهذا الحديث– يعني قولهﷺ:"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"– يقول: إنما أنا ما أحدثتُ شيئا، فيُحتَجّ عليه بالرواية الأخرى في زيادة مسلم، وهي قوله ﷺ:"من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"، وهذا صريح في رد كل المحدثات: سواء أحْدثها أم سُبق إليه"[٩٧].

فمن الغلو ما ينشره البعض من نفي تأثير الرياء في الصلاة على النبيﷺ، ويقولون الرياء داخل في كل عبادة باستثناء الصلاة على النبيﷺ. فهذا التغالي حَمَل كثيرا من الناس على التظاهر والرياء بالصلاة عليهﷺ. فهو خطأ لعدة أسباب، فمن أهمها: أن الصلاة عليه ﷺ عبادة عظيمة، و تخصيصه عن سائر العبادات بعدم دخول الرياء فيه، شئ يحتاج إلى دليل متين؛ و دون وجوده هنا خرط القتاد!

على أن الغلو محرم حتى في قراءة القرآن الذي هو عبادة لا ينفك عنها مسلمٌ ليل نهار، وقلّما تخطر الرياء لمن ألف قراءته، و مع ذلك يقول ﷺ :" اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به ، و لا تستكثروا به"[٩٨] ، فمن الخطل إذًا أن ينفى وجود الرياء في عبادة رفيعة الشأن كالصلاة عليه ﷺ، هكذا اعتباطا بغير مستند!

ثم إن الرسول ﷺ قال كلمة فاصلة، ناهيا فيها عن الرياء في الصلاة عليه. فقد روى أبو بردة بن نيار أن رسول اللهﷺ قال:"من صلى عليّ من أمتي صلاة مخلصا من قبله، صلى

الله عليه بها عشر صلوات، و رفعه بها عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، و محا عنه بها عشر سيئآت"[٩٩]. فالإخلاص عنصر أساسي في العبادة لا بد منه.

لم يسمح الإسلام للبدعة أن تطل في العبادة و مظاهرها، لذلك- استقراء -بيّن ستة أشياء التي تدور عليها العبادة[١٠٠]، وهي:

ا- السبب: جعل الله تعالى للعبادات أسبابا تكون هي الداعية، لإيقاعها. فهذه الأسباب أسباب شرعية، ومثال ذلك تحية المسجد، فإنها صلاة ذات سبب شرعي، تؤدى كلّما دخل المسجد. فلا يجوز أن يخترع شخص شيئا صلاة أو غيرها و يحافظ عليه محافظتَه على ما جعل الله له أصلا و سببا شرعيا، مثل إحياء ليلة النصف من شعبان، بدعوى أنها ليلة فاضلة. أو إحياء ليلة السابع والعشرين من رجب بالصلاة و الأذكار، بدعوى أنها ليلة الإسراء و المعراج. فهذه الأسباب لم تجعلها سببا للصلاة في تلك الليلة، و لا تعرض لها بذكر في شئ مما ثبت في القرآن و السنة. فيكون اعتباره ابتداعا في الدين بما لم يأذن به الله.

ب- الجنس: هناك من العبادات ما خص الله تعالى جنسا من الأشياء يكون هو المحل القابل لتلك العبادة، فإذا خرجت العبادة عن ذلك الجنس المخصوص فسدت، و صارت بدعة. و مثال ذلك أن الله تعالى جعل بهيمة الأنعام: الإبل، و البقر، و الغنم، هي الجنس المسموح به في الأضحية، فإذا ضحّى أحد بالفرس، يكون قد جاء بشئ جديد في الدين لم يأذن به الله، وعمله مردود. و لذلك لا يعتبر برأي الإمام ابن حزم حيث استساغ الأضحية بالديك والفرس[١٠١]، و هو قول عجيب منه-رحمه الله تعالى-.

ج- القدر: و للعبادات أقدار حددها الشارع، فلا يحيد عنها زيادة أو نقصانا قيد شعرة. فإذا ورد : افعلوا هذا مرة، أو ثلاثا، أو سبعا، أو ثلاثين، أو مائة، فالواجب على المسلم أن يذعن لذلك التحديد إيمانا و تصديقا، و لا يرى أن هذا القدر قليل و لا يكفي، أو يقول هو يقدر على أكثر من ذلك. فالزيادة أو النقص عن القدر الشرعي تخل بمفعولية تلك العبادة.

د- الكيفية: وصف الشارع كيفية مضبوطة للعبادات، فللوضوء كيفيتها، وللصلاة كيفيتها، وكذلك الصوم والحج والأذكار وسائر العبادات، فالله تعالى لم يترك العبادات هكذا هملا يفعلها كل أحد كيف شاء، و كيفما اتفق له ، بل جعل لها كلها كيفياتها مضبوطة من قبله تعالى في القرآن، و على لسان رسوله و أفعاله ﷺ.

هـ- الزمان: وهو عنصر آخر في العبادات الشرعية، و يكفي مثالا أن لكل صلاة من الصلوات الخمس وقتا خاصا، كما حدد للحج أشهرا و أياما تخصه، و لصوم رمضان شهرا لا يقبل إلا إذا أدي فيه، وحتى الزكاة تؤدى بعد حولان الحول على المال. و هكذا دواليك... فلا يخترع أحد زمانا يراه هو، ثم يركب فيه عبادة يرجو ثوابها من الله تعالى. فيقال له إنه ابتدع في الدين وخالف السنة، "وليس في مخالفة السنة رجاء ثواب"- على حد قول يحي بن يحي الليثي.

و- المكان: قد جعلت الشريعة لكثير من العبادات أمكنة مخصوصة، و قبولها مشروط بأدائها في ذلك المكان، وذلك كأماكن الحج، فلا تستبدل بغيرها، والاعتكاف شرطه في المساجد، فلا يصح في البيوت و الغرَف. فمن اعتكف في البيت -مثلا- فقد ابتدع بدعة ترد عليه، لأن الله تعالى قال في سياق الكلام:" و أنتم عاكفون في المساجد"[١٠٢].

ومدار الابتداع إنما هو في شؤون الدين ابتداء و عودة. و تعريف البدعة الاصطلاحي يدل على ذلك بوضوح، فهي المنطقة التي ضيق الإسلام نطاقها في أُطر محدودة من عقيدة وعبادة وتعامل بين الناس. هناك منطقة أخرى سرحت الشريعة لفكر الناس أن يخترع ويُوجِد ما لم يكن له مثال سابق. فقد جاء هذا واضحا في قول نبي الله هود-عليه السلام- و هو يتحدث مع قومه:"قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، هو أنشأكم في الأرض واستعمركم فيها"[١٠٣]، فقوله: "واستعمركم فيها"، أي طلب منكم أن تستعمروها بالبناء و الزراعة وغير ذلك. وجاء في الحديث عن عائشة و أنس:"أنتم أعلم بأمور دنياكم، وما كان من أمر دينكم فإليّ، و في لفظ آخر:"إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به"[١٠٤]. فالنبيﷺ، حظر عن الابتداع في أمر الدين، وسمح بالابتداع في أمر الدنيا،

وهو ما استغلق فهمه على بعض الناس. ويعني "بأمور دنياكم": الاختراعات التي تجر تقدما في مجال الطب والهندسة والمعمار، وسائر العلوم التجريبية و شؤون الدنيا إلخ.

ومن ضيق العطن و التحجر أن يحشر بعض الناس أمثال الساعة اليدوية والثلاجة والمروحة والطائرة ومكروفون (مكبر الصوت)، و أن يترك الناس ركوب السيارات إلى ركوب الجمال و الحمار، و..و.. في عداد البدعة، ليبرروا الابتداع في الدين. وهو – بالحق– تفكير صبياني طائش!

ونظرية تقسيم البدعة إلى"حسنة" و"سيئة" نظرية خاطئة. فليس في الدين بدعة تستحسن، كما هو صريح الحديث السابق. و أوضح ذلك عبد الله بن عمر، المعروف بالالتزام المطلق للسنة، في قوله –رضي الله عنه– :"كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة"[١٠٥].

وكذلك نظرية تقسيم البدعة إلى خمسة: البدعة الواجبة، والمندوبة، والمباحة، والمكروهة، والمحرمة، إنه تقسيم مرفوض. ونلاحظ عليه أن ما كان واجبا بحكم الاجتهاد الحقيقي في حينه ومحله يكون واجبا قطعا، وكذلك ما دلت عليه الدلالة الواضحة على مندوبيته أو كونه مباحا، من غير أن تضاف كلمة البدعة إليها. والشأن–كذلك– في الحرام والمكروه. على أني أتوقع في القريب العاجل أن يأتي أحد و يقول هناك "بدعة سنة"، ليجد الضدان مكانا متسعا في وقت واحد، لأن المندوب في عرف الفقهاء هو السنة!!

ثم إن هذا التقسيم الخماسي كان منصبا على المفهوم اللغوي لكلمة "البدعة"[١٠٦]. والحوار كان في المفهوم الديني للكلمة. فإن من شأن الدين انتقاء الكلمات واختيارها اختيارا، ثم بالتالي يهصرها في بوتقة خاصة له، لتدل على شئ معين يحصر التفكّر في مجاله، ويطبّعه بطابعه. ومن شأن اللغة إطلاق الكلمة وتعميمها، ومن شأن الدين تقييد مفهوم الكلمة وتخصيصها في حدود.

٣- درَج فقهاء العصر وبعض القدماء أيضا على هذا الاصطلاح "المعاملات" في كل ما له تعلق بالعقود من نكاح وبيوع، وسائر ما كان مدروسا تحت مصطلح "المعاملات"، وأصبح من مشمول الكلمة في الفقه المعاصر.

فالعجب أن يسئ بعض المتعالمين فهم تقسيم البدعة إلى "الدينية" و"الدنيوية"، فيظن أن المراد بالدنيوية هذه "المعاملات"، ويظنون أننا نقول إن الابتداع في الدنيويات التي هي المعاملات في نظرهم أيضا: حرام. فيكيلون كيل الانتقاد في غير محله، قائلين: بأن أحكام المعاملات مستمدة من الدين، والله يقول:"قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت"[١٠٧]، فكيف ينكر الثابت المنصوص عليه؟ بل إنهم يتساءلون- جهلا- مَنْ قسّم بدعة إلى الدينية والدنيوية ؟

وهذا خطأ. فقد سبق الكلام في أن الابتداع في الأمور الدنيوية مطلوب بأمر من الله تعالى ورسوله، ومن هذا الأمر الصادر من الله و رسوله أخذنا التقسيم المذكور.

وأما التحايل لإبرام العقد الفاسد بالمنظور الشرعي لأكل أموال الناس بالباطل، فكل هذا حرام.

حرّف بعض المغالين بعض النصوص في تحريم الربا تحريفا معنويا حيث قالوا إنما الربا المحرم هو ما كان أضعافا مضاعفة. أما ما كان شيئا تافها قليلا فإنه مسموح به، لأنه تعالى قال:"يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة"[١٠٨]، مع أن الله تعالى قد أحكم في تحريم الربا بقوله:"الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع و حرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف، و أمره إلى الله، و من عاد فأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون. يمحق الله الربا و يربي الصدقات، و الله لا يحب كل كفار أثيم. ....يأيها الذين آمنوا اتقوا الله و ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسولِه، و إن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون"[١٠٩].

وغالى بعض قصار النظر ، و نفوا إخراج الزكاة من الأوراق النقدية المتداولة اليوم، لأن النصوص– في زعمهم– إنما اقتصرت على ذكر "الذهب" و"الفضة" دون غيرهما من العملة الصعبة وغير الصعبة ! و قياس الأوراق النقدية على الذهب والفضة اجتهاد فاقد الأساس في نظرهم. فلو كان الله يريد من عباده إخراج الأوراق في الزكاة لأمر بها في حياة الرسول ﷺ:"وما كان ربك نسيا". فليس فيها – بزعمهم– زكاة، مهما بلغت عددا.

فهذا غلو في نفي ما كان مجمعا عليه منذ عصر الرسول نفسه إلى عصر الصحابة و من بعدهم. فإن أشكال النقود تختلف من زمان إلى زمان حتى في عصر النبي ﷺ بالنسبة للعصور التالية له، فإن قيمته تزداد أو تنقص بحسب التداول. غير أنها تضبط بضابط لا يختلف كثيرا، و هو القيمة النقدية للذهب والفضة. و حتى في هذا العصر فإن القيمة النقدية للذهب هي الضابطة لأموال الدول والمؤسسات الكبيرة. فبقدر ما تمتلك من الذهب، يكون حجم ثروتها و قدرتها الاقتصادية في سوق العالم. والأوراق النقدية تعبير عملي عن الذهب المدخر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"ما سمّاه الناس درهما و تعاملوا به تكون أحكامه أحكام الدرهم من وجوب الزكاة فيما يبلغ مائتين منه، والقطع بسرقة ثلاثة دراهم منه إلى غير ذلك من الأحكام ، قل ما فيه من الفضة أو كثر، و كذلك ما سمي دينارا"[١١٠].

وأبواب المعاملات في الفقه الإسلامي أبواب رحبة، و منطقتها فسيحة، لذلك لا يُسرع فيها بالحكم بالكفر أو التحريم المطلق حتى يدل الدليل "الصريح" "الصحيح" على ذلك. وقد نعى الشيخ ابن القيم –عليه رحمة الله– فيما عاب على الظاهرية تضييقهم في هذا الباب. فقد ذكر أن الظاهرية تخطأ في أربعة اتجاهات:

"أحدها: رد القياس الصحيح ولا سيما المنصوص على علته التي يجري النص عليها مجرى التنصيص على التعميم باللفظ.

الخطأ الثاني: تقصيرهم في فهم النصوص. فكم من حكم دل عليه النص ولم يفهموا دلالته عليه. وسبب هذا الخطأ حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ دون إيمائه وتنبيهه وإشارته وعرفه عند المخاطبين.

الخطأ الثالث: تحميل الاستصحاب فوق ما يستحقه وجزمهم بموجبه لعدم علمهم بالناقل وليس عدم العلم علما بالعدم.

الخطأ الرابع: اعتقادهم أن عقود المسلمين وشروطهم ومعاملاتهم كلها على البطلان، حتى يقوم دليل على الصحة .فإذا لم يقم عندهم دليل على صحة شرط أو عقد أو معاملة استصحبوا بطلانه، فأفسدوا بذلك كثيرا من معاملات الناس وعقودهم وشروطهم بلا برهان من الله، بناء على هذا الأصل. وجمهور الفقهاء على خلافه. وأن الأصل في العقود والشروط الصحة إلا ما أبطله الشارع أو نهى عنه.

وهذا القول هو الصحيح فإن الحكم ببطلانها حكم بالتحريم، والتأثيم. ومعلوم أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا تأثيم إلا ما أثم اللهُ ورسوله به فاعله، كما أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله. فالأصل في العبادات البطلان حتى يقوم دليل على الأمر. والأصل في العقود والمعاملات الصحة حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم.

والفرق بينهما: أن الله سبحانه لا يعبد إلا بما شرعه على ألسنة رسله فإن العبادة حقه على عباده، وحقه الذي أحقه هو ورضي به وشرعه، وأما العقود والشروط والمعاملات فهي عفو حتى يحرمها"[١١١].

٤ــ الغلو والتحريف في تقويم الشخصيات:

ويوجد الغلو حتى في تقويم الشخصيات. فإن المغالي هنا يبذل وسعه ليرفع من شأن إمامه أو شيخه أو من ينظر إليه بتقدير إلى قُنّة تتساوى مناقبه مع صفات الحق سبحانه وتعالى، أو بعض رسله من الملائكة و من الناس، أو يرفعه فوق منزلته التي أنزله الله.

وظاهرة الغلو في هذا الجانب قديمة، و لكن الله سبحانه و تعالى لم يزل يجنب المسلم الحق عنها و يُنحّيه عن اقتراب الذرائع إليها.

قد نهى الله تعالى عن ذلك قائلا لأهل الكتاب و غيرهم ضمنا و تصريحا:"اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"[١١٢] و قال تعالى للنصاري:"يا أهل الكتاب لا تغلُوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريم و روح منه، فآمنوا بالله و رسله، و لا تقولوا ثلاثة، انتهُوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات و ما في الأرض، وكفى بالله وكيلا"[١١٣]، وقال:"قل يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل و أضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل"[١١٤]

إنما ينبني تقويم الناس على شيئين أساسيين، وهما "العلم"، و"العدل"، فهما رباط تقويم الشخصية في الإسلام. والحكم المبني عليهما لا ينحرف. و قد قال الله تعالى:"يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، و اتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون"[١١٥]، و قال:"ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا"[١١٦] فلا يطلق المتكلم عنان لسانه إلا بما أوجب له علمه بتلك الشخصية إيجابا أو سلبا، و بقدر ما يقتضيه العدل والإنصاف مدحا أو قدحا. فـ"العدل واجب لكل أحد، على كل حال، في كل حال. والظلم محرم مطلقا لا يباح بحال"– حسب تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية[١١٧].

وبقدر ما يتحلى به المسلم من آداب الإسلام و سلوكياته يكون ثقله في ميزان التقويم. فلا يجوز أن يطيش الغلو بالدارس فيمتدح من بدت صحيفته سوداء لحد العيان في الابتعاد عن منهج السنة. كما أن من استقام على درب الإسلام عبادة و منهجا وسلوكا لا يجوز أن يشوّه نقي سيرته بالزور والبهتان.

إن مقتضى منهج العلم والعدل–كما يقول الإمام الذهبي– أن :"نحب السنة وأهلها، ونحب العالِم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة. و لا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ. و إنما العبرة بكثرة المحاسن"[١١٨].

ويتدخل أهل العلم هنا لانتشال الغلاة من أوحال الغلو، و أدغال الخرافات بتجلية وجه الصواب، وإبانة الحق بالحجة والبرهان، لحجز الناس عن التردي في هاوية الغلو والبدعة، وتحرير عقليتهم من سيطرة الأوهام حتى يردوهم إلى المنهج المتوازن، الذي يعطي كل شئ حقه، ويضع كل شئ في نصابه الحقيقي، وذلك يكون بالنسج على محكمات الكتاب والسنة بمقتضى فهم السلف الصالح.

١–٢ مفهوم الانتحال:

إظهار التنور والمهارة في إيجاد بعض المبادئ وإعداد النظريات، رغم أنه سيطرة في واقع الأمر على بنات فكر الآخر، والتفاخر على حساب صاحبها الحقيقي، هو الانتحال. تقول العرب: انْتَحَل وتنحَّل فلان شيئا: إذا ادعاه لنفسه و هو لغيره[١١٩].

والإسلام دين راسخ، محكم البناء، لا يمكن لتلاعب العابثين أن تنفذ فيه. وقد ضمن الله سبحانه وتعالى الحفاظ على أساسه، و وفّر للمسلمين طرائق للحفاظ على فروعه، "إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون"[١٢٠].

و حيث لم يكن طريق لاقتلاع الإسلام من جذوره، ركن أعداؤه الأقدمون والمعاصرون إلى حيل متعددة يرونها مُجدية في الوصول إلى تعكير أهداف الإسلام في عقول أصحابه. فكان انتحاله "تدينا" و "منهجا" من حيثيات متعددة من أسهل حِيَل تدميره في نظرهم.

انتحله اليهود والمجوس، على علم بأنه ألدّ عدو لهم، لأنه هدم الوثنية و حرر العقول من عقالها، وأوضح أن الناس سواسية أمام الله، لا فضل ليهودي على غير يهودي، و ليس هناك شعب اختاره الله واستأثر به، حيث قال الله تعالى: "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى، و جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[١٢١].

انتحله ابن سبأ فأقحم في تعاليم الإسلام فكرة تقديس ذرية النبي إلى حد الألوهية. نقل ذلك علماء الحديث بأسانيد ثابتة وصريحة، و شهد به كبار المؤرخين حتى من الشيعة، حتى قال النوبختي (ت ٣١٠هـ)، بعد أن ذكر أصل معتقد ابن سبأ، و منشؤه: "فمن هنا قال من خالف الشيعة : إن أصل الرفض مأخوذ من اليهود"[١٢٢].

و قد صدق من خالف الشيعة في ذلك، لأن الدلائل القوية تحكم بالتشابه المذكور، ذكرها –بتفصيل– العلماءُ الذين اعتنوا بالرد على الشيعة أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– في كتابه "منهاج السنة النبوية".

و من جهة أخرى استطاع دعاة النصرانية المختلطة بالفلسفة الغنوصية أن يبلوروا فكرة سريان الألوهية وتسلسلها في الخلق أجمعين تحت الرواية التي اختلقوها "أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر"[١٢٣].

و من جملة انتحالِه تدينا ما قام به القرامطة الباطنية من استعمال الاصطلاحات الإسلامية لتمشية أهوائهم وتسويقها بين الأغرار. و قد فعلوا ذلك قصدا من أجل تعمية مقصودهم عن سائر الناس. فكلمة "الوضوء" عبارة عن موالاة إمامهم، و"الصلاة" تعني الرسول، "الزكاة" تعني تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين، وأداء واجباتهم، و"الصوم" يعني الإمساك عن إفشاء سرهم، و"الاحتلام" هو إفشاء سرهم، "و الصفا" هو النبي، و "المروة" هو علي، و "الشياطين" هم مخالفوهم، و الملائكة" هم الدعاة إلى دعوتهم... هكذا دواليك، كل شئ رأسا على عقب.

و قالوا في صراحة لا تنقصها القُحة:"إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها و تطهيرها إلا بالفلسفة"[١٢٤].

و من الانتحال ما قام به الزنادقة من اختلاق الروايات الموضوعة، و إيجاد الأسانيد للأساطير المروجة في دياناتهم القديمة لترويجها بين المسلمين.

وانتحله المستشرقون و تلامذتهم من المستغربين منهجا في البحث، وتقمصوه في كتاباتهم، فسخروا أقلامهم المغرضة وأفواههم العريضة، واستطالوا عليه، حيث يستعملون

عناوين إسلامية براقة، بكلمات مطاطة، ويدبجون بحوثا علمية موضوعية–كما يسمونها– ويظهرون الدفاع عن غايات نبيلة بشكل ظاهر للخداع فقط، لينتهزوا الفرصة المواتية لضرب الإسلام، وتقويض دعائمه، واقتلاع تعاليمه من جذر قلوب المسلمين، و إبادة الأمة المسلمة من أراضيهم وتصفيتها جذريا. وإن لم يتمكنوا من ذلك–ولن يتمكنوا أبدا–فلا يفوتهم نفث خبثهم بين صفوف الأمة، ومحاولة تمزيقها عن طريق عملية غسيل المخ لأبنائها بإحياء كتب كفرية قد أُمِيتَت، و نبش أفكار ضالة قد دُفنت، و عفا عليها النسيان، ذلك لأن فيها ما يخدم غرضهم في إفساد أمة الإسلام.

ترى تلامذة المستشرقين شبابا أو كهولا "من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا"[١٢٥] ويدعون بأسماء تشابه أسماءنا، غير أنهم يحملون عقولا محيرة، لا يهمها هموم المسلمين، ولا يتفكرون بما يجر تقدما في أمتهم المنكوبة، أو يمحو القتر عن وجه الإسلام الصحيح. وخاصة في هذه الآونة التي يتهم الغرب الإسلام في صرامة وشدة شديدتين بأنه دين العنجهية و الإرهاب.

و قد كشف البحث أو التقرير الذي قدمته الكاتبة "شاريل بينارد" إلى مؤسسة رند الأمريكية عن مدى كيد الغرب وأمريكا تجاه كل ملتزم لتعاليم الدين، و متحمس لها. وكان البحث مخططا تكتيكيا، مسّ كل مقدسات الإسلام، يقول إن:"اثنين على الأقل من سور الكتاب المقدس –(تعني القرآن)– مفقودة". و ليس هذا فقط، بل حاول التقرير تأليب بعض فئآت الأمة على بعض، و دعم بعض الفرق الضالة بكل ما تحتاج إليه لإبادة أهل السنة والمتمسكين بها، و نادى –بكل تأكيد – إلى تشجيع متابعة سياسة "فرق تسد"، كما أن البحث ركز كثيرا على تحريض النساء ليتحررن عن الإسلام. و لم يخف البحث محاربته لكل ما تدعو إليه السنة المحمدية محاربة سافرة، و أوضح بأن الأحاديث في تعاليمها تكبّل الحرية، و هو ما وصفته الكاتبة بـ"حرب الأحاديث".

و قررت الكاتبة الأمريكية "إن المسلمين هم الوجه الآخر للبربريين ، و إن أسلوب حياتهم يتناقض مع أسلوب الحياة لدى الغرب، فإن كان الغرب الحديث حركيا، فإن

الإسلام مصاب بداء الاستبداديين و الارهابيين و حرب الأحاديث التي لا تنتهي".

و البحث جدير بأن يقرأه كل مسلم غيور على دينه ليقف على ما يُكاد لدينه و لأمته، تحت ستار الموضوعية و الحياد العلمي[١٢٦].

و ينتحل الغرب الإسلام في الآونة الأخيرة، وخاصة بعد حادثة إحدى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تحت شعار تجديد الخطاب الديني، يريدون إسلاما بلا جهاد، وأن تدفن عقيدة الولاء و البراء، و أن يوجد للديمقراطية المستوردة منهم محلا من الإعراب في تعاليم الإسلام، و أن يطلق للمرأة القيود الشرعية، لتنفس الصعداء على مقتضى تعاليم الغرب، و تفعل ما تشاء من غير اعتبار شرع، و لا حياء. و يريدون من الخطاب الديني الجديد أن يؤكد التسامح الديني، لينفتح المسلمون على الأديان الأخرى حتى يقتبسوا منها من بعضا من نظريات الحياة و نظمها، و يتبعوا سننهم حذو القذة بالقذة.

و قد أعاد أعداء الإسلام النظر في استراتيجية الغزو، لتستتب لهم الهيمنة على الدول المسلمة و السيطرة على عقلية شعوبها، و اللعب المزدوج بإقتصاداتها في سهولة، بدعوى تحرير الدول من وطأة الدكتاتورية والاستعمار المباشر، و قد بدأ هذا الاستعمار غير المباشر منذ عقود، و إنما ظهرت بعض من نتائجه في أوائل التسعينات باسم "نظام العالمي الجديد"، وبالإضافة إلى تعديلات أدخلت هنا و هناك على النظام في سنوات قلائل، فقد ظهر باسم جديد أكثر استهواء و جاذبية بعنوان "العولمة"، التي هي محاولة ذات الأبعاد المختلفة، لفرض حضارة الغرب وأمريكا و قيمها وتقاليدها على سائر الدول، و تنفيق منتجاتها وترويج رؤاها و نظمها السياسية وفلسفتها المادية .

١-٣ تأويل الجاهلين:

أما كلمة التأويل في اللغة فإنها على وزن: تفعيل، من أوّل الرباعي يُـؤَوِّل تـأويلا- والثلاثي هو آل يَؤُوْل: كلاهما بمعنى رجع و عاد. و يقال أوّل الكلام و تأوَّله: إذا تدبّره، و قدّره و فسَّره.

وقال أبو منصور اللغوي:"يقال آلَتّ الشئ أُؤوله إذا جمعته و أصلحتُه. فكأن التأويل جَمْع معاني ألفاظٍ أُشْكِلت بلفظ واضح لا إشكال فيه". و قال الليث:"التأوّل والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، و لا يصح إلا ببيان غير لفظه"[١٢٧].

وكلمة "التأويل" في اللغة تدور حول رجوع الشئ إلى أصله و تفسيره، و هي في الحديث قيد الدراسة تعني تفسير النصوص تفسيرا مغرَضا، و هي إذًا في هذه الحالة تعني لونا آخر من الكيد للعلم النبوي.

إنها عملية معوّجة تقوم على فهم سطحي للنصوص، واستعجال النتائج والاستنباطات المختزَلة من غير ما نظر علمي وتريّث رشيد. ولا أدل على ذلك من أن المؤولين أنفسهم "جُهَّال"-كما هو منطوق الحديث- "وإن لبسوا لبوس العلماء، وتظاهروا بألقاب الحكماء. و هذا يجب التنبه له ، والتحذير منه، ووَضْع الضوابط الضرورية للوقاية من الوقوع فيه. و معظم الفرق الهالكة و الطوائف المنشقة عن الأمة، وعن عقيدتها، وشريعتها، و الفئات الضالة عن سواء الصراط ، إنما أهلكها سوء التأويل"-كما يقول الشيخ القرضاوي[١٢٨]

و ما يقوله صواب، و ذلك لأنهم لا ينطلقون من دعائم علمية ثابتة، ولا يحكمون منهجية سليمة، وإنما يعتمدون على التخمينات والظنون في فهم الآيات والأحاديث العقدية والفقهية والسلوكية، ويوجهونها نحو أغراضهم- على فرض أن تكون لهم أغراض، لأن الجاهل ينطلق من الصفر و ينتهي إليه، لا يمتلك موازين القسط ولا ضوابطه، ولا يعلم مقاصد الشريعة، لذلك تراه يفتي بدون نظر عميق، ولا استيعاب كاف لأقوال الأئمة السابقين، إنه في الحقيقة لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وإنما يتسكع في هواه، ويتبع ذوقه

وتشهيه. لذلك يؤول النصوص وفتاوى العلماء الأئمة صَوْبَ أهوائِه المضلة:"و من أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله"[١٢٩].

الخوارج من الفرق التي بنت معتقداتها على الجهل و التسطيح في الفهم، و يدل على ذلك أن النبي ﷺ كان قد وصفهم بعدم هضم العلوم و فهمها جيدا في قوله "يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية"[١٣٠].

و قد دفعهم الجهل إلى إنكار رجم الزاني، لأنه بزعمهم لم يرد في القرآن ، كما أنهم يفتون النساء بأداء الصلوات في حالة الحيض إلى غير ذلك مما أنكروا ، لعدم وروده –على حد زعمهم – في القرآن صريحا.

و هي آراء تنادي على صاحبها بالجهل و الإغفال عن السنة التي ألزم القرآن اتباعها على المسلمين. و هؤلاء هم الخوارج القدماء، وكذلك كان و يكون كل من نسج على منهجهم و اقتفى آثارهم من الخوارج الجُدُد، ممن يدعون القرآنيون، أو يدعون بأسماء أخرى بحكم نزعة أخرى فرعية. و لا مشاحة في الاصطلاح! فهم دائما بحكم الجهل المسيطر على عقليتهم ينكرون السنة، ولا يرفعون إليها رأسا. و ترى العجب إذا سألتهم عن كيف يؤدون الفرائض التي تولت السنة وحدها بإعطاء التفاصيل الكافية عنها ؟

ضمّني يوما مجلس مع أحد المنتمين إلى فرقة القرآنيين، وتجاذبنا أهداب الكلام عن قضايا كثيرة، فسألته–والحوار محتدم– عن الآيات الدالة على عدد الركعات للصلوات الخمس. فقال هي في قوله تعالى:"الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى و ثلاث ورباع"(فاطر:١). و استمر يعلق: هكذا كانت الصلوات منها ذات أربع ركعات، و ثلاث و ثنتين ! فقلت له: دع عنك تفسير الآية، فإن الشئ الأبيض الخالص إذا وصفه أحد من الناس بالسواد، فلا بد أن يقيم دليلا على سواده، فهل من دليل على أن هذه الآية في الصلوات، لأنها في سياق الكلام عن الملائكة و أجنحتها، و لم تطرأ لذكر الصلوات كلمة؛ لا سباقا ولا لحاقا ؟ و ذكرُ الملائكة فيها بمثابة الشئ الأبيض الخالص، و من أنكر ذلك فليقم برهانا ناصعا. و أنا أعلم أن دون وجوده خرط القتاد !!

فتغيظ صاحبي، و أنهى المناقشة مُبْهَتًا !

و من الأمثلة ما ذكره الشيخ آدم عبد الله الإلوري–رحمه الله– متعجبا من صنع الجهل و ترسّباته، يقول "من العجب أن نرى بعض اليرباويين في مقاطعات إبادن و أبيكوتا من يستحل الزيادة على الأربع، بحجة أن النساء اللآتي توفي عنهن رسول الله تسع، و أن هذا العدد بالذات يتفق مع جمع ما في قوله تعالى:"فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع٠٠"، في حيز واحد(اثنتين و ثلاثة وأربعة صار تسعة)٠

وأضاف يقول:"فرددنا عليهم بأن ذلك من قلة فهم العربية، إذ ليس معقولا أن يتزوج الرجل اثنتين مرة واحدة، ثم ثلاثا مرة واحدة، ثم أربعا مرة واحدة"[١٣١]٠

ومن تأويل الجاهلين حمل بعض الجهال قول الرسول ﷺ:" صدقة جارية" في حديث: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[١٣٢]– حملوا : "صدقة جارية" على الإضافة، و على أن لفظ "جارية" يعني الفتية من النساء، الأمر الذي يعطي جواز إعطاء الرجل ابنته لبعض من الناس صدقة من أخذ صداق منه٠

و هذا التفسير الخاطئ مبني على فهم مغلوط لكلمة "الجارية" التي هي اسم الفاعل من: جرى، يجري جريا، والمذكر: الجاري، و المؤنث: الجارية٠ ومنه قوله تعالى:"فيها عين جارية"٠ و اللفظة من حيث النطق لا تختلف من كلمة الجارية بمعنى الفتية، و لكنها غير المراد هنا٠

إن لفظة "جارية" في الضبط الصحيح نعت لـ"صدقة"، و لا محل لإعرابها مضافا إليه لكلمة "صدقة" كما زعم بعض جاهلي بلاد الهوسا، و يحثون الآباء على أن يتبرعوا بإنكاح بناتهم من غير ائتيانهن صدقاتهن نحلة كما أمر الله تعالى٠

وفي تأويلات الجاهلين ونتائجها السيئة فكريا وماديا، يقول الإمام ابن القيم–رحمه الله: "معلوم أن العلوم إنما قصد بها مصنفوها بيانها وإيضاحها للمتعلمين وتفهيمهم إياها بأقرب ما يقدرون عليه من الطرق، فإن سُلط التأويل على ألفاظهم وحملها على غير ظواهرها، لم

ينتفع بها وفسدت وعاد ذلك إلى موضوعها ومقصودها بالإبطال، فإذا حمل كلام الأطباء على غير عرفهم المعروف من خطابهم وتأول المخاطب كلامهم على غير ظاهره لم يصل إلى فهم مرادهم البتة، بل أفسد عليهم علمهم وصناعتهم، وهكذا أصحاب علم الحساب، والنحو، وجميع أرباب العلوم إذا سلط التأويل على كلامهم لم يوصل إلى شيء من تلك العلوم، مع أنه يجوز عليهم الخطأ والتناقض والتلبيس في بعض المواضع والتعمية، ومع قصورهم في البيان ووجوه التعبير ومع نقصان إدراكهم للحقائق وعلومهم ومعارفهم فكيف يسلط التأويل على كلام من لا يجوز عليه الخطأ والغلط والتناقض وضد البيان والإرشاد هذا مع كمال علمه وكمال قدرته على أعلى أنواع البيان وكمال نصحه وهداه وإحسانه وقصده الإفهام والبيان لا التعمية والإلغاز.

ولهذا لما سلط المحرّفون التأويلات الباطلة على نصوص الشرع، فسد الدين فسادا لولا أن الله سبحانه تكفل بحفظه، وأقام له حرسا وكلهم بحمايته من تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين لجرى عليه ما جرى على الأديان السالفة، ولكن الله برحمته وعنايته بهذه الأمة يبعث لها عند دروس السنة وظهور البدعة من يجدد لها دينها ولا يزال يغرس في دينه غرسا يستعملهم فيه علما وعملا.

وكما أن التأويل إن سلط على علوم الخلائق أفسدها، فكذلك إذا استعمل في مخاطباتهم أفسد الإفهام والفهم. ولم يمكن لأمة أن تعيش عليه أبدا فإنه ضد البيان الذي علمه الله الإنسان لقيام مصالحه في معاشه ومعاده".[١٣٣]

خاتمة المطاف:

الغرض من هذا البحث هو توضيح الحديث بالقدر الكافي من الأمثلة، و أراه قد اتضح في حدود هذه الصفحات، و لكن بقي أن أشير إلى شيئين، يختتم بهما هذا التوضيح:

الأول: وجود عملية كشف الزيف و تفنيده و ممارستها ممارسة حقيقة على مستوى الأفراد يكوّن أمة مقتصدة، و يكوّن مجتمعا مسلما يقوم على تطبيق العلم النبوي، و يشدد في رفض النظم الغربية بكافة مظاهرها الفكرية و الاجتماعية والسياسية، كما يحد الثقافات والتقاليد الوافدة من عقول معادية للإسلام من الانتشار بين النشء والشباب والمثقفين وعوام الناس. إنها تقطع الصلة و تحول دون تنظير الرؤى والعمل حسب تصورات الغرب وفلسفته الجوفاء، حتى يعبد الأفراد ربهم وفق شريعته بعيدين عن المبتدعات المدخولة في حياتهم.

لقد بدا على درجة من الوضوح أن التزام حملة العلم العدول بالمهمات المشروحة لنقض دجل الغالين و كيد المبطلين و عبث الجاهلين، يجعل أعداء الإسلام يستخدمون قواهم الفكرية و المادية ضد العلم النبوي و تدمير حملته، ويبذلون أقصى ما يستطيعون جمعه من التزوير واستخدام العنف وتشويه السمعة وغير ذلك من ردود الفعل المريرة، والمؤامرات الحاقدة لمحاربة الحق وأهله، يحاربهم المبتدعون العاديون والعلمانيون عن قوس واحدة من الداخل، ويأتي الهجوم الخارجي من الصهاينة و مؤسسات التبشير بالإضافة إلى جهود الغرب في تنظيم التحديات المتمثلة في الغزو الفكري والسلاحي معا.

والعقبة التي تمنع المغالين والمبطلين والجاهلين من قبول الحق تتمركز في هذا العصر في الشعور بالشبع العلمي الجاف والانفتاح الثقافي الخرب، والدراسة الموضوعية المغرضة، بالإضافة إلى صفة الكبرياء التي أفاضها بعض الجاهلين على قلوبهم، فتنغلق أنفسهم نتيجة ذلك الشعور الفاسد، عن كل شئ حتى عن البش في وجه الدعاة إلى الأخذ بالسنة ومعايشة العدالة في صراحة لا تنقصها المراوغات.

لم تزل همة البدعي–من قديم–تبطن السريرة السيئة تجاه أصحاب الحديث، والأمر كما يقول الإمام الأوزاعي، وهو يتحدث مع تلميذه بقية بن الوليد–رحمة الله عليهما– فقال الأول للأخير:" يا أبا يحمد ما تقول في قوم يبغضون أصحاب حديث نبيهم ؟! فقال بَقية:" ليس من صاحب بدعة تحدثه عن رسول الله بخلاف بدعته إلا أبغض الحديث"[١٣٤].

وقد قال الإمام أحمد بن سنان–رحمه الله–، وهو يوضح الرابطة بين أهل البدع و الشارة الغالبة عليهم:" ليس في الدنيا مبتدع إلا و هو يبغض أصحاب الحديث. فإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه"[١٣٥].

إن المحروم من تفهّم الحديث النبوي و تذوقه، بمعزل عن إدراك الشريعة ومقاصدها، لأن علم الحديث– على حد قول ابن الجوزي– رحمه الله– :"هو الشريعة، لأنه مبين للقرآن، وموضّح للحلال والحرام، وكاشف عن سيرة الرسول"[١٣٦].

إن الواقع يشهد على هذا.

وهو ثاني ما أود الإشارة إليه، بمعنى :" إذا تأملت في معاني الحديث (المشروح) وبلاغة معانيه، أيقنت أنه ليس له محمل يحمل عليه إلا أهل الحديث وعصابة السنة، وجماعة التوحيد. وأن هذه الأوصاف ما وجدت قط إلا فيهم ، ولا توجد إلا فيمن كان على سبيلهم السوي، وصراطهم القوي. وأن جميع الألفاظ الثلاثة الجامعة لكل من عداهم لا يخرج عنها خارج من "المقلدة" ، ولا من "المتكلمة" ، و لا من "المبتدعة" ، على اختلاف أنواعها وتباين شوارعها.

فهذا من أعلام النبوة.

وفيه بشارة لأهل الحديث بكونهم معدَّلين على لسان نبي الأمة و رسول الرحمة. وهذه خصيصتهم لا يشاركهم فيها أحد من العالمين. والناس الآخرون إنما عدلتهم أبناء جنسهم، و فيهم الصادقون والكاذبون.

وفيه نَعْي على سائر الفرق غير الفرقة الناجية، التي هي عبارة عن عصابة السنة، بكونهم غالين ومبطلين و جاهلين.

فتدبر أيها السني في هذا الخبر الشريف، واعتبر بمفهومه اللطيف، لعـــل الله يهـــديك إلى صراطه المستقيم. وهو المستعان"[١٣٧]

وهذا آخر ما وفقت إلى جمعه:
وقد كتبته في مجالس، وآخرها
يوم السبت (ليلة الأحد)
٢٩ رمضان ١٤١٩هـ
١٦يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩

وراجعته كذلك في الحرم المكي، وآخر مراجعاتي له فيه يوم الاثنين :
٢٣ ذو الحجة ١٤٢٣هـ
٢٤ فبراير٢٠٠٣م
و نوقش بنجاح في المعهد العلمي يوم الأحد (يوم التروية)
٨ ذو الحجة ١٤٢٦هـ
٨ يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٦م

سبحانك اللهم،وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك و أتوب إليك

وصلى الله و سلم على سيدنا محمد و على آله وصحبه

الهوامش و التعاليق الختامية

١ – مقتبس من كتاب "التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد "– ضمن ثبت الحافظ البَلَوي (ص/٤٥٥)

٢ــ الهلالي سليم بن عيد، كفاية الحفظة شرح المقدمة الموقظة، مكتبة الفرقان، ط الأولى، ١٤٢١هـــ٢٠٠٠، (ص/٣٣٠)

[٣] – الحلبي علي عبد الحميد، تحقيق مفتاح دار السعادة، (١/٢٢٠)

[٤] – التعريف بما خص من الحديث بالتأليف، (ص/١٨٨)

٥– الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت:دار صادر،١٩٦٦م، (٩٦/٦)

٦– الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت (ت:٤٦٣)، تاريخ بغداد، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط الأولي،١٣٩١هـ،(٢١٩/٢)

٧– المرجع السابق، (٣٧٨/٩)

٨ــ نقله العراقي في فتح المغيث شرح ألفية الحديث له (ص/١٤٣)

[٩]– ابن حبان أبو حاتم محمدالبستى (ت:٣٥٤)، الثقات، (٦٩/٩)، ابن ماكولا، الإكمال، (٥٦٤/١)، ابن حجر أحمد بن علي الكنانى(ت:٨٥٢)، نزهة الألباب في الألقاب (ص/١٣٨)

١٠ــ ابن القيم ، طريق الهجرتين ، (٥٢٢/١) والقسطلاني: إرشاد الساري، (٤/١)

١١ــ ابن كثير أبو الفداء إسماعيل(ت:٧٧٤)، اختصار علوم الحديث مع الباعث الحثيث (ص/٨١)، البداية و النهاية ، بيروت: دار الكتب العلمية، ط الثانية ، ١٤٠٨هـ ــ١٩٨٨م، (٣٥١/١٠و٢٥٦/٦)

[١٢]ــ ابن منظور محمد بن مكرم أبو الفضل جمال الدين(ت:٧١١هـ)، لسان العرب ، بيروت : دار صادر، ١٩٥٦هـ (٨٥/٩)

١٣– الغماري، الأجوبة الصارفة لإشكال حديث الطائفة، تحقيق عدنان زهار، بيروت: دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م، (ص/٧٩)

١٤ــ البخاري محمد بن إسماعيل(ت:٢٥٦) ، الجامع الصحيح مع شرحه فتح الباري ، بيروت : دار الفكر، ١٣٧٩هـ،(٤٠١/١٢–الفتح) و مسلم بن إبراهيم أبو الحسين (ت:٢٦١) ، الجامع الصحيح ــ مع شرح النووى ، بيروت : دار الفكر، ط الثانية ،١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م، (٧/٥–نووي)

١٥– العلق:١ــ٥

[١٦]– فصلت:٥٣

١٧– المائدة:٦٧

١٨– المائدة:٩٩

١٩– النحل:٤٤

٢٠ــ البخاري (١٧٤١/٥٧٣/٣و١٧٤٢– الفتح)، مسلم (٩٦/٣–نووي)، أبو داود السجستاني سليمان بن أشعث(ت:٢٧٥)، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، د٠ت٠، (١٩٠٥/٤٥٥/٢)، ابن ماجه، السنن (٣٠٧٤/١٠٢٢/٢)، و الدارمى عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد(ت:٢٥٥)، السنن ، بيروت : دار الفكر،د٠ت٠، (٤٤/٢) وغيرهم٠

٢١ــ ابن حنبل الإمام أحمد أبوعبدالله الشيبانى (ت:٢٤١)، المسند ، مصر: مطبعة الميمنية ، ط الأولى، ١٣١٣هـ، (١٢٦/٤)، وابن ماجه (٤٣/١٦/١) و الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع (ت:٤٠٥)، المستدرك علي الصحيحين، الهند حيدرآباد: دائر المعارف، ط ــ الأولى ،١٣٨٢هـ،(٩٦/١)، وفي المدخل إلى الصحيح، (ص/٨١) ، والآجري، الشريعة، (ص/٤٧)

٢٢ــ النحل:٨٩

٢٣ــ النساء:٥٩

٢٤ــ الجاثية:١٨

٢٥ــ الحاكم، المستدرك، (٩٣/١)، و الدارقطني عمر بن علي(ت:٣٨٥) ، السنن ، بيروت : دار الفكر ، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م، (١٦٠/٤)، والبيهقي، السنن الكبرى، هند: دائرة المعارف العثمانية ، ط الأولي، ١٣٤٦هـ، (١١٤/١٠)، وابن عبد البر، التمهيد (٣٣١/٢٤-٣٣٢)، ابن عدى عبد بن الجرجانى أبو أحمد(ت:٣٦٥)، الكامل في ضعفاء الرجال،بيروت: دار الفكر، ط الأولي،١٤٠٤هـ، (٦٩/٤)، والعقيلي أبو جعفر محمد بن عمرو، الضعفاء الكبير، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٠٤هـ، (٨٠٤/٢٥٠/٢) ومن طريقه ابن حزم، إحكام الأحكام ، مصر:مطبعة العاصمة، ط الثانية، د٠ت٠، (٨٠٩/٦) كلهم من طريق صالح بن موسى حدثنا عبد العزيز بن رفيع عن أبي صالح عن أبي هريرة- به٠ وصالح ضعيف جدا٠

وله شاهد أخرجه ابن عبد البر عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده مرفوعا٠ و قال ابن عبد البر:"محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد"٠

٢٦ــ مسلم في مقدمة صحيحه (١٤/١-نووي)٠ و للتفاصيل عن أهمية الإسناد يراجع: أبوغُدَّة عبد الفتاح، الإسناد من الدين، حلب : مكتبة المطبوعات الإسلامية ، ط الأولي،١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م٠

٢٧- التوبة:١٢٢

٢٨ - آل عمران:١٠٤

٢٩ــ أخرجه أحمد في المسند (١٨٤/٣)، و في فضائل الصحابة له (ص/٤١)، و ابن سعد أبو عبد الله محمد(ت:٢٣٠)، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، بيروت: تصوير دار صادر، (١٧٦/٣)، الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (ت:٢٧٩) ، الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذى، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت: دار الفكر، ط الثانية،١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م، (٥/)، والنسائي في "السنن الكبرى"، وابن ماجه (١٥٤//١)، والحاكم(٤٢٢/٣)، وابن حبان ، وأبو نعيم، الحلية، (٢٢٨/١)، وابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم(ت:٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، بيروت دار الفكر، ط الأولى، ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م، (٣١٠/١٩)٠ و له شواهد عن ابن عمر في الكامل لابن عدي (٧٧/٦) و ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢٨/٧)، وعن جابر بن عبد الله في الطبراني، المعجم الصغير ، تصحيح عبد الرحمن عثمان ، ببيروت : دار الفكر ، ١٤٠١هـ، (٢٠١/١)

٣٠ــ البخاري(١٩٣/١٩٣/١و١٢/ /٦٥٧٠ــ الفتح)

٣١ــ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع و ترتيب عبد الرحمن بن القاسم و ولده ،السعودية: مطابع الرياض،١٣٨١هـ، (٣/١)

٣٢ــ مقدمة مسلم(١٤/١-نووي)

٣٣ــ القاضي عياض: ترتيب المدارك، الرباط: المطبعة الملكية، د٠ت، (٢٣٦/٢)

٣٤ــ ابن أبي حاتم أبو محمد عبد الرحمن الرازي(ت:٣٢٧هـ)، الجرح و التعديل ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن المعلمي، هند حيدر أباد الدكن:دائرة المعارف ، ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م، (٣١/١)

٣٥ ــ ابن عبد البر يوسف بن عبد الله (ت:٤٦٣)، جامع بيان العلم و فضله ، (٨٨٩/٥٠٩/١)

٣٦ــ الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ، لسعودية ــ الرياض : مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م، (١/)

٣٧ــ المرجع السابق(٩/٧٩/١)

٣٨ ــ أحمد، المسند، (٣٨٥/٥) و الحاكم، المستدرك، (٧٥/٣ــ٧٦)

٣٩ــ البيهقي، شعب الإيمان، (٩١٧/٥١٦/٦)

٤٠ــ الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى ، الموافقات ، ضبْط وتعليق عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، د٠ت، (٩٥/١)

٤١ ــ اللآلكائي أبو القاسم هبة الله بن الحسن، كرامات الأولياء و إظهار آيات أصفيائه من الصحابة والتابعين و الخالقين لهم و من بعدهم من المتأخرين، تحقيق الدكتور أحمد بن سعدان الغامدي، السعودية : دار طيبة ، ط الثانية ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م٠ (٢٢/١ــ٢٣)

٤٢- الباجي أبو الوليد سليمان بن خلف (ت:٤٩٤هـ)، المنتقى شرح موطأ الإمام مالك بن أنس، مصر: مطبعة السعادة، ط الأولى ١٣٣٢هـ، (١٨٣/٥)

٤٣ــ ابن الجوزى أبو الفرج عبدالرحمن علي (ت:٥٩٧هـ)، صيد الخاطر، تحقيق محمد عبد الرحيم، بيروت: دار لفكر،ط الأولي،١٤٢٢هـ ــ٢٠٠٢م (ص/٢٧٧)

٤٤ــ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي، (١٦٣٤/٢١١/٢)

٤٥ – آل عمران:١١٠

٤٦- البقرة:١٤٣

٤٧ – الأحزاب:٣٩

٤٨ــ ابن الوزير، الروض الباسم ، (٢٨/١)

٤٩ــ الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وجماعة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط الأولي ، ١٤٠٠هـ ــ ١٤٠٤م، (٤٠٤/٨)

٥٠ــ نقل كلامه هذا ابن الصلاح في علوم الحديث (ص/٩٥)

٥١- الدارمي، السنن، (٣٨٤/١-٣٨٥/٣٨٨)

٥٢ــ نقله العراقي في شرح ألفيته الصغير (٢٩٩/١)، والسيوطي، تدريب الراوى شرح تقريب النواوى، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، بيروت: دار الفكر،١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٨م، (٣٠٢/١)

٥٣ــ النووي، تهذيب الأسماء و اللغات، (١٧/١)

٥٤ــ الأنصاري زكريا، فتح الباقي شرح ألفية العراقي، (١٩٩/١)

٥٥ــ نقله ابن الوزير، الروض الباسم ، (٢١/١ــ٢٢)

٥٦ــ العراقي، التقييد و الإيضاح، (ص/١٣٩)

٥٧ــ ابن الوزير، تنقيح الأنظار مع توضيح الأفكار، (١٢٧/٢)

٥٨ــ ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، (١٦٣/١)

٥٩ــ البخاري، التاريخ الكبير، بيروت: دار الفكر،د٠ت، (٣٨٧/٣)

٦٠ــ البيهقي، شعب الإيمان، (١٧٩٠/٢١٨/٢)

٦١ــ المرجع السابق٠ و قارنه بسنن الدارمي (٣٠١/٣٣٦/١)

٦٢ــ الحاكم ، معرفة علوم الحديث ، (ص/٦٣)

٦٣- محمد:٧

٦٤- العنكبوت: ٦٩

٦٥ – الصف:٣

٦٦ – طه:١٢٤

٦٧- النحل:١٢٥

٦٨ – يوسف:١٠٨

٦٩ – الإسراء:٣٦

٧٠ــ الخليل، كتاب العين ، (٢١١/٣)، ابن منظور، لسان العرب، (٤٣/٩)، الزبيدي، تاج العروس، (٦٩/٦)

٧١– الجوهري، الصحاح، (٢٤٤٨/٦)، ابن المنظور، لسان العرب، (١٣١/١٥)

٧٢ــ أخرجه أحمد (٣٤٧/١،٢١٥) والنسائي وابن ماجه والحاكم (٤٦٦/١) و ابن خزيمة و ابن حبان عن ابن عباس، والبيهقي (١٢٧/٥)

٧٣ــ مسلم (٥٢٥/٥– نووي) وأحمد (٣٨٦/١)

٧٤ــ الألباني، تحريم آلآت الطرب، (ص/٧٩)

٧٥– البقرة:٥٨

٧٦ – صحيح مسلم (٣٢١/٧– الأبي)

٧٧ – مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (٣٣٠/١– الأبي)٠ كلام القاضي عياض ذكره في شرحه لصحيح مسلم، و نقله الأبي مثبتا في الإكمال في الجزء والصفحة المشار إليهما٠

٧٨– الأعراف:٤

٧٩– القرطبي، التفسير، (١٦٣/٧)

٨٠– القنوجي، العلم الخفاق في علم الاشتقاق، سوريا: دار البصائر، ط الأولى، ١٤٠٥هــ–١٩٨٥م، (ص/٩٥–٩٦)

٨١ــ أبو شامة ، ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري، (ص/٥١ــ٥٤)

٨٢– البخاري، (٤٠٦/٦–٤٠٧/٣٥٣٤–الفتح) و مسلم (٥١/١٥–نووي)

٨٣ – ورد ذلك في أحاديث كثيرة، أشهرها و أصحها حديث علي أخرجه البخاري (٦٠/٧/الفتح)، و مسلم (١٧٤/١٥–نووي)

٨٤– البقرة:٢٨٢

٨٥ – ابن جرير، جامع البيان، (١٨٧/٣)

٨٦ – العجلوني، كشف الخفا (٢٣٤٦/٢٢٠/٢)، و الحديث الذي المستفاد منه موضوع أيضا، أخرجه أبو نعيم في الحلية ( )٠ و قد بحثت عن هذه القضية مشبعا في أكتوبة مفردة باسم:"تأملات في المنامات و المكاشفات"٠

٨٧ – السيوطي، تدريب الراوي، (٨٥/١)

٨٨ – ابن عدي، الكامل، (١٠٣/١)

٨٩– البينات:٥

٩٠– زمر:٣

٩١– النحل:٤٤

٩٢ــ الرهوني، شرح الرهوني على المختصر(١٣٩/١ و٢٢٧/١)

٩٣– النساء:١٧١

٩٤– المائدة:٧٧

٩٥– أحمد في المسند (٢١٥/١) و النسائى أحمد بن شعيب، السنن (ت:٣٠٢هــ) بيروت: دار الفكر، ط الأولي، ١٣٤٨هـــ ــ ١٩٣٠م، (٢٦٨/٥)

٩٦– البخاري (٢٢٢//٥–الفتح)، مسلم (١٦/١٢–نووي)

٩٧ــ نقله الشيخ عثمان فودي، إحياء السنة و إخماد البدعة، طبع بعناية الحاج طن أغى طابيريرو صكتو٠د٠ت، (ص/١٨)

٩٨- مسند أحمد:رقم ١٥١٠٣

٩٩- أخرجه النسائي، عمل اليوم و الليلة، بيروت: دار الفكر ، ط الأولي ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م، (ص/٦٤/٣٩) و قارنه بـ القول البديع للسخاوي (ص/١٠٨)

١٠٠- عثيمين محمد بن صالح، الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع، (ص/٢١-٢٤)

١٠١- ابن حزم، المحلى بالآثار (٦/٢٩-٣٠)

١٠٢- البقرة:١٨٧

١٠٣- هود:٦١، و ينبغي أن يراجع: القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت:٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، و المبين لما تضمن من السنة و آي الفرقان، مصر: مطبعة دار الكتب المصرية ، ط الثانية ١٩٣٦هـ، (٥٦/٩)، و الجصاص، أحكام القرآن، (٢١٣/٣)، و ابن الجوزي، زاد المسير، (٩٨/٤)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، مكة المكرمة : المكتبة التجارية ـ بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، (٤٦٦/٢) فقد أيدوا الوجهة التي تدل على أن "استعمركم" فعل أمر.

١٠٤- مسلم، الجامع الصحيح، (١٦٦/١٥-نووي)، و ابن ماجه (٢٤٧١/٨٢٥/٢)، و مسند أحمد (١٥٢/٣ و ١٢٣/٦)

١٠٥ـ اللالكائي: شرح اعتقاد أصول أهل السنة، (٢٦/٢)،

١٠٦[1] - راجع للتفاصيل عن ذلك الاعتصام للشاطبي، و اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ففيهما بيان مقنع عن ذلك.

١٠٧- الأنعام:١٦٢-١٦٣

١٠٨- آل عمران:١٣٠، و للتفاصيل حول رد حصر مفهوم الآية على "أضعاف مضاعفة" فحسب، راجع ابن جرير محمد بن جعفر أبو جعفر(ت:٣١٠هـ) ، جامع البيان في تفسيرالقرآن، مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ، ط الأولي ،١٣٢٣ هـ، (١٣٩/٣)، ومعاني القرآن للنحاس(٤٧٤/١)، و تفسير القرطبي (٢٠٢/٤)، و تفسير ابن كثير(٤١٢/٢) و غيرها

١٠٩- البقرة: ٢٧٦-٢٧٨

١١٠- البعلي علي بن محمد (ت:٨٠٣)، الأخبار العلمية من الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، بيروت: دار الفكر،د.ت.، (ص/١٠٢)

١١١[1]- ابن القيم محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٣م، (٣٣٨/١-٣٤٤)

١١٢- التوبة:٣١

١١٣- النساء:١٧١

١١٤- التوبة:٧٧

١١٥- المائدة:٨

١١٦- الإسراء:٣٦

١١٧- ابن تيمية، منهاج السنة النبوية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، بيروت : مكتبة خياط ، د.ت، (١٢٦/٥)

١١٨- الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٤٦/٢٠)

١١٩- ابن منظور، لسان العرب، (٦٥١/١١)، الزبيدي، تاج العروس، (١٢٩/٨)

١٢٠- حجر:٩

١٢١- حجرات:١٣

١٢٢[1] - النوبختي، فرق الشيعة، (ص/٤١-٤٤)، و هناك محاولة من قبل الشيعة و المستشرقين و أذيالهم في نفي وجود شخصية ابن سبأ، مع أن أكثر من كتاب من كتب الشيعة الكبار قد أثبتته، منها: الثقافي إبراهيم بن محمد: الغارات(٣٠٢/١-٣٠٤)، والطوسي: رجال الطوسي(ص/٥١)، و ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة(٣٠٨/٢ و ٥/٥ و١٢٠/٨) ، والقمي:تحفة الأحباب (ص/١٨٤)، وفي

المقالات و الفرق له (ص/٢٠)، ومرزا تقي الدين: ناسخ التواريخ، الحلي: الخلاصة، التستري: قاموس الرجال، المامقاني: تنقيح المقال(١٨٤/٢)، أبو العباس القمي:الكنى و الألقاب، أبو عمرو الكشي: رجال الكشي(ص/٩٩-١٠١)، الخوانساري: الروضات الجنات(٦/)، الصدوق: من لا يحضره الفقيه(٢٢/١)، الكليني: الكافي(٢٥٧/٧)، نعمة الله المجلسي: الأنوار النعمانية(٢٠٧/١)٠ و قد أوضحت هذا كله في أكتوبة أخرى مخطوطة٠

١٢٣- للباحث دراسة مستفيضة عن هذا الحديث باسم:"حديث أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر: بين الحقيقة و الخيال"، ما زال مخطوطا٠

١٢٤- راجع كتاب الغزالي أبي حامد محمد بن محمد، المستظهري أو فضائح الباطنية، (ص/٥٥-٥٩)٠ و رسائل إخوان الصفا، بيروت:دار صادر، (٦/١)٠ والذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، القاهرة: دار الكتب الحديثة،١٩٧١م، (٢٤١/٢-٢٤٢)، فضائح الباطنية لغزالي (ص/٥٥-٥٩)

١٢٥[1] - مقتبس من حديث صحيح، يصف أحوال أمثال هذا الصنف من أعداء الإسلام من بني جلدتنا٠ هو حديث حذيفة أخرجه البخاري (٦٥٥٧/٣٠/١٣-الفتح) و مسلم (٢٣٦/١٢-نووي)

١٢٦[1]- وأصل البحث مكتوب بالإنجليزية بعنوان :**Civil Democratic Islam: Partners, Resources, and Strategies** و راجع الكتاب الأستاذُ كريم كامل، و كتب مقالا بعنوان: الإسلام الديمقراطي المدني: الشركاء و المصادر و الاستراتيجيات، في مجلة البيان العدد ٢٠٠(ص/١٠٠)، و الكاتبة هي شاريل بينارد٠

١٢٧- ابن منظور، لسان العرب، (٣٣/١١)، و الزبيدي، تاج العروس، (٢١٥/٧)٠

١٢٨- القرضاوي يوسف(الدكتور)، كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم و ضوابط، الرياض:مكتبة المؤيد مع التعاون بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط الثالثة،١٤١١هـ-١٩٩١م، (ص/٢٨-٣١)، و كرر ذلك بالحرف الواحد في كتابه الآخر: المدخل لدراسة السنة النبوية، القاهرة: مكتبة وهبة، ط الخامسة،١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، (ص/٩٥-٩٨)

١٢٩- القصص:٥٠

١٣٠[1]- البخاري (٢٥٩/١٢/-الفتح)، و مسلم (١٠٥/٦-نووي)

١٣١-الإلوري،آدم عبد الله، الإسلام اليوم و غدا في نيجيريا، مصر:مكتبة وهبة، ط الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، (ص/١٢٧-١٢٨)

١٣٢[1] - أخرجه مسلم (٨٥/١١-نووي) و غيره عن أبي هريرة٠

١٣٣- ابن القيم، الصواعق المرسلة، تحقيق الدكتورين أحمد الغامدي و علي الفقهي، السعودية: مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط الأولى، ١٤٠٧هـ، (٢٣١/١-٢٣٢)

١٣٤ - الخطيب، شرف أصحاب الحديث، (ص/١٥٥/٧٣)

١٣٥- المرجع السابق ، (ص/١٥٦/٧٣)

١٣٦[1] ابن الجوزي، صيد الخاطر، (ص/٣٠٦)

١٣٧[1]- صديق حسن خان، الدين الخالص، (٢٦١/٣-٢٦٣ و ٥٤٦/٣)